

الأخلاق والعادات

عادات الدمشقيين

كان سمر الشاميين قبل نصف قرن تقريبًا في بيوتهم، نكتفي كل طبقة باجتماعها مع أهل طبقتها، فتتج عن ذلك أن في المدينة الواحدة من مدن الشام الكبيرة تباينًا، يكاد يوهم لأول وهلة أنهم من أقاليم مختلفة يتباينون بأزيائهم ومآكلهم ومشاربهم وسمرهم ولهجاتهم، وبالطبع بتصوراتهم وعقليتهم إلى أن ولي الشام مدحت باشا الوالي العثماني الشهير ووضع أسس الإصلاح العلمي والاجتماعي والإداري، وبدأت النهضة الأدبية عقب ذلك فتعارف الأولاد بالمدرسة أولاً، وتقومت ألسنتهم، واعتادوا التلطف بالفصيح الصحيح، وفتحت الأندية والمقاهي ودور التمثيل، ثم قاعات الصور المتحركة، وتعارف الناس وقلت الفوارق، وقضى على الأرستقراطية إلا قليلاً، وحلت محلها الديمقراطية، فنشأ عن ذلك اعتياد الشباب الراقي المتعلم ارتياد المحال العامة والاحتكاك بمن مضى وقت تعليمهم، فمرنوا أيضًا على التخاطب بالفصيح الصحيح ما أمكن، وعم ذلك جميع الطبقات حتى غير المسلمة وما نزال نوى ذلك في تقدم مستمر.

تنقسم حفلات الدمشقيين إلى مدنية ودينية؛ أما الدينية فتتخصر فيما يلي: عيد الفطر والنحر، والرجوع من الحج، والإياب من زيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وسنة الختان، وبعض نذور لله يقوم بها من أبل من مرض شديد، وآب من سفر خطر أو بعيد، وعادات القوم في تلك

الأعياد إخراج الصدقات والزكوات والتوسيع على الفقراء، وتكثر الزيارات ويتصافح القوم عما بينهم من سيئات، ويصلون أرحامهم ويوسعون على عيالهم. وعادتهم في ذلك أن يبدأ الأصغر سنًا بزيارة الأكبر، ويُقدّم الأكبر سنًا ويحترم في كل شيء؛ ومنشأ ذلك على ما أعلم الأمية فإن غلبة الأمية على قوم تضطّروهم إلى احترام من كان أكثر تجربة منهم، ومن مرت عليه السنون، وحلب الدهر أشطّره وكثرت تجاربه، كان جديرًا بالاحترام، أما اليوم فحقيق بالاحترام من يقدم الخدم النافعة لأمته، وليس للسن دخل في ذلك، وخير الناس كما قيل أنفعهم للناس.

ويتقدم عيد الفطر شهر رمضان، وللدمشقيين فيه عادات: منها إتمام فريضة الصيام، والانقطاع عن بعض عادات ضارة، ويقضون نهاره في سماع المواعظ في المساجد، وليلة في زيارات بعضهم بعضًا، وارتياح محال اللهو المباح، وتكثر حركة الأخذ والعطاء والبيع والشراء، وهو من المواسم المذكورة.

أما حفلات الحج في هذا العصر، فتم حين رجوع أحدهم من بعد أداء فريضة الحج بأن يقدم إلى خواص ذوي قرباه وجيرانه وأصدقائه وأحابه هدية، وتختلف هذه الهدية بحسب مقدرته المالية، ويتدئ المهنتون بزيارته في داره، ويقدم له خواص أصدقائه وأقربائه قبل وصوله إلى وطنه هدايا تكون غالبًا من اللباس الفاخر، ويكون مثل ذلك بعد رجوع أحدهم من زيارة مسجد الرسول. وتختتم هذه الزيارات غالبًا بإقامة حفلة يدعونها مولدًا وهي عبارة عن اجتماع يضم أصدقاء المحتفى به وذوي قرباه وزملائه وجيرانه في داره، ويدعون المنشدين ويفتتحون بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم وينشدون بعض قصائد في مديح الرسول يتلون المولد النبوي فيه وتعداد بعض مآثره ونسبه وبعض إرهابات تقدمت بعثته، وحين مولده، يقصدون من ذلك التبرك.

ومثل ذلك حفلة الختان ومن المتعارف فيها أن يهدي إلى صاحب الحفلة أهله وأصدقائه شيئاً كثيراً من السمن والأرز والغنم والقهوة؛ بل من جميع ما يلزم لتلك الحفلة، ويكون ذلك ديناً عليه وفاؤه، حين إقامة حفلة مثلها عند المهدين. وتختتم هذه الحفلة مثل أخواتها أيضاً بتلاوة المولد.

ولم يبرح بعض من لا يعتدّ بعقولهم يندرون بعض نذور غريبة وهي ما يسمونه بالنوبة يقيمون لها حفلة هي عبارة عن دعوة بعض الفقراء المشعوذين، ممن يضربون على الطار والطبل، ويلعبون بالشيش، وبعض قطع من السلاح الأبيض ويظفثون بأفواههم النيران فيجتمع عليهم الأطفال وبعض صغار الأحلام فقط، وهي عادة أصبحت على وشك الزوال.

ومن الحفلات الدينية أيضاً حفلات تكايا أو زوايا المولوية، وأرباب هذه الطريقة لهم حين إقامة هذه الحفلات لباس خاص وهو ثوب أبيض فضفاض، ويلبسون على رءوسهم ما يسمونه «كلاهًا» وهو من اللباد مستطيل الشكل، ويمتاز رئيس تلك الطريقة بوضعه عمامة خضراء فوقها ويدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة جداً من حيث الفن الموسيقي. وهي من حيث نظامها أتقن حفلات الشرق الدينية على الإطلاق، وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية.

إذا حضرت أحدهم الوفاة تعلن وفاته إن كان من الأشراف والعلماء وأرباب الظهور في مآذن المدينة، ثم يحضر غسل المتوفى أصدقائه وذوو قريبه. وغسل الميت عند المسلمين يقوم مقام التقرير الطبي في هذه الأيام، يثبت بها أن الميت مات ميتة طبيعية فيطلع الغاسل على عامة جسمه، فإذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ظهر ذلك لحاضري

غسله، وهم غالباً من محبيه، فيشيع ذلك ويتصل بالحكام، وبعد غسله يشيعون جنازته إلى أحد المساجد ويصلون عليه، ويذهبون به إلى المقبرة ويمشي المؤذنون أما جنازته يذكرون الله وذلك إشهاراً لموته وإعلاناً له، وبعد رجوعهم من المقبرة يذهبون إلى منزل عميد الأسرة يعزونه ويحضرون على ثلاث ليال بعد العشاء أحد المساجد القريبة من دار المتوفى، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم، ويسمون ذلك «صباحية»، ويحضر تلك الحفلة أقرباء الراحل وجيرانه وزملاؤه، ويصرفون على الفقراء والمعوزين الدراهم والطعام بحسب ثروة المتوفى. وهذه العادة كادت تبطل لمعرفة القوم بقيمة الوقت فأخذوا يكتفون بالتعزية في بيت آل الفقيد. وعادة عيادة المريض معدودة عندهم من الواجبات يواسونه ويسلونه ويكررون الاختلاف إليه.

من عاداتهم المدنية أنه متى بلغ الشاب العشرين إلى الثلاثين أن يتولى عميد أسرته إرسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أخت وعمة وخالة ونسيبة وبعض خواص الجيران إلى بيوت المدينة وأحيائها يبحثون وينقبون على زوجة لذلك الشاب، وتكون قاعدتهم في خطبيهم غالباً الكفاءة من جهة الثروة والسن والآداب، ولا يزلن يوالين بحثهن عامًا كاملاً على العقل ومتى قر قرارهن على إحدى البنات يكررن التردد إلى دارها مرات عديدة ليرينها بجميع مظاهرها، يرينها في زيتنها وفي وقت الغسيل ووقت الطبخ وتنظيف المنزل. وعادة الدور التي يكون بها بنات في سن الزواج وهي عادة من الخامسة عشرة إلى الخامسة والعشرين أن يناط بالبنات تقديم القهوة والشراب للخاطبات فيتأمل الخاطبات مشيتها ونقل أقدامها وأدبها في تقديم القهوة في الإياب والذهاب ويخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها، ومتى أصبح الأمر تقريبًا واقعًا يذهبن إلى الحمام معًا ويرين جسمها عارية وشعرها ويشمنن آذانها وفمها وتحت إبطها ورائحة عرقها

وثيابها، وينقلن ذلك إلى الخاطب وعميد الأسرة مع وصف شكلها وجمال وجهها وطولها وغير ذلك. هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب.

أما وظيفة النساء من جهة الخاطب فيزرن الحي القاطن فيه سرًا ويرسلن من يتقن به من أقربائهن وجيرانهن فيدخلن غالب بيوت ذلك الحي باحثات عن أخلاق الخاطب وثروته وتجارته أو وظيفته، وعن عدد آل بيته ومركز تلك الأسرة في الهيئة الاجتماعية. ويجري التقصي عن آداب بيت الخاطب وأصوله ويذهبن بالمخطوبة سرًا إلى مقر الخاطب أو طريق ذهابه وإيابه فتراه، فإذا راق الخاطب في أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة؛ وهنا تنتهي مهمة النساء، ثم يتألف شبه وفد من عميد أسرة الخاطب، والبعض من معارف عميد بيت المخطوبة، إلى دار ذلك العميد، ويطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب، بعبارات تختلف بحسب مركز تلك الأسر في المجتمع، ويكون الأمر مقضيًا على الأغلب بعد تلك التمهيدات، ويقررون المهر ويقرءون الفاتحة فاتحة القرآن الكريم للتبرك دليلاً على رضى الطرفين، وبعد ثلاثة أيام يقدم الخاطب خاتم الخطبة، وبعد أسبوع غالبًا يحتفل بحفلة العقد يقوم بها الخاطب، فيدعو برقاع مطبوعة على غاية الإتقان أهله ومعارفه، معينًا وقت الدعوة ويومها، ويرسل إلى عميد أسرة المخطوبة بعدد من تلك الرقاع ينفقون عليه من قبل، فيدعو من أراد من أسرته وأصدقائه، فيجتمع المدعوون في المحل المعين ويجري على الأغلب افتتاح تلك الحفلة بقراءة المولد، وتدار المرطبات وقراطيس الحلوى على المدعوين، بعد عقد قران الزوجين الشرعي، وينفض المدعوون، وتنتهي حفلة العقد بعد دفع المهر المقرر، وبعد شهرين أو ثلاثة غالبًا يذهب وفد نسائي من قبل العروس بعد أن

يكون أهل العروس أتموا لوازم عروسهم يحملن هدية تختلف بحسب مكائنتهن، يسمينها «تعيينة» فيعين موعد حفلة العرس وعدد المدعوات من أهل العروس وتكون تلك الحفلة ليلاً في الغالب، ويرسلون بطاقات الدعوة، وليلة الحفلة يرسل وفد من النساء في مركبات على عدد المدعوات من النساء إلى دار العروس، يأتين بها من دارها مع المدعوات إلى دار العروس، وتكون هذه على غاية الرواء والبهاء والزينة، ويدعى عادة إلى تلك الحفلة المغنيات والمطربات ويقضين تلك الليلة بعد دخول العروس بعرسه غرفة خلوتهما بالغناء والرقص وسماع الموسيقى وآلات الطرب، ويمسین على ذلك إلى الصباح، وتعود السيدات المدعوات إلى دورهن ويبقى في بيت العروس بعض الخواص من أهلها، مثل أمها وعمتها وخالتها ومريبتها سبعة أيام.

هذه هي الحفلة النسائية أما الحفلة الخاصة بالعروس (الرجل) فيتقدم أحد وجوه أسرته أو أصدقائه غالباً يعد داره لتلك الحفلة ويسمونها «تليسة» ويدعون إليها جميع أقارب العروس وأصدقائه وأرباب مهنته وجيرانه، في جوقة موسيقية تدير هذه الحفلة نحو ساعتين تطرب الحضور بأنغامها، ومتى حان للعروس لبس ثيابه يهزج الشاب عادة عند إلباسه كل قطعة من ثيابه بأهازيج وطنية عامية بحسب كل عصر ومصر. يذهب به الحضور عقبى ذلك إلى دار حفلة العروس بالأهازيج، ويدخلونه الدار مع عميد الأسرة فيدخله ويضع يده بيد عرسه ويدخل بهما إلى غرفتهما ويذهب بسلام.

هذه حفلات الزواج وعوائد القوم قديماً، واليوم قد زيد عليها معاينة صحة الزوجين، وينظرون إلى الكفاءة العلمية قبل كل شيء مما يبشر الأسرة المقبلة بأعلى درجات السعادة الزوجية، وهذا الشكل في تأسيس الأسرة يعرض عليه المحافظون بالنواجذ، ويؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة،

ويرونة أضمن لحفظ السعادة البيئية من جميع أشكال النظم المتبعة في العالم.

ومن عاداتهم الخروج أواخر فصل الشتاء وأوائل الربيع إلى المنتزهات العامة يومًا في الأسبوع لاستنشاق الهواء النقي، على اختلاف عاداتهم ومذاهبهم، نساء ورجالًا، وتكون أماكن جلوس النساء خاصة بهن غالبًا، ولا يتيسر للرجال أن يخالطوهن بحكم العادة، والشاذ قليل. ومن العادات القديمة التي نشأت من الأمية أيضًا سماع القصص في المقاهي وقد تلاشت الآن هذه العادة، وكان يجتمع في المقهى عدد يختلف بحسب المحل والقصاص، يتصدر القصاص «الحكواتي» في صدر المكان ويقرأ لهم غالبًا القصص التي يرغبون فيها مثل رواية عترة والزير وأبي زيد وهي روايات حماسية، تمثل الشجاعة والكرم والأنفة والحمية والوفاء والصدق والمروءة والجرأة وحفظ الذمام ورعاية الذمار والجار، إلى آخر ما هنالك من مكارم الأخلاق ينسبونها إلى أبطال الرواية، ويجعلون نهاية النصر لهم والدائرة على منائئهم، ويصفون الخصوم بالجبن والبخل والرياء والغدر والخيانة والنكث بالعهد إلى آخر ما هنالك من مفاسد الأخلاق، مما يربي نفوس السامعين على حب الفضائل ويوجب إليهم العمل بها، ويبغض إليهم النقائص ويحملهم على البعد عنها، وغالب من يجتمعون لسماع تلك الأقاصيص من طبقة العوام، وهم متصفون ببعض تلك الفضائل.

ومن ملامحهم خيال الظل والعوام يدعونه «قره كوز»، وكان في أول القرن الحاضر من أشد العوامل تأثيرًا في تهذيب الأخلاق وتقويمها، بما يلقيه أستاذ هذا الفن المشهور بدمشق علي بي حبيب على ألسن تلك الخيالات من المواعظ الأخلاقية، بعبارات ملؤها انتقاد، تفعل في قلب أشد الناس بلادة، وكان يصور في كلامه العادات السيئة المتفشية في

عصره، ويظهرها في قالب ينفر الناس منها، ويصور ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وأغلاظهم في صور نقد لطيف، وكان يحترمه عليه القوم ويعد أستاذًا كبيرًا في الموسيقى تخرج به كل من ينتمي لهذا الفن بدمشق.

ومن العادات الشائعة تعاطي القهوة والشاي في المقاهي العامة شتاء، وأنواع المرطبات صيفًا، والتدخين بالتبغ والنارجيلة على الدوام، وتكون صورة اجتماعية حسب طبقاتهم، ويرتادون أماكن سمرهم هذا، بعد العشاء حين الانتهاء من مزاولة الأشغال وطلب الراحة. وأحاديثهم غالبًا تدور على السياسة وفي موضوعات علمية واجتماعية يمتدحون فلانًا لمكرمة أتاها، ويذمون فلانًا لنقيصة بدرت منه. ارتقت أحاديثهم في هذا القرن إلى الخوض في هذه الشؤون العامة، ولم تكن في القرن الماضي تتعدى أحاديث البطون والفروج إلا قليلًا، ومنهم من يقضي سمره ببعض الألعاب الشائعة كالشطرنج والبليار والدومنية والداما والنرد وألعاب الورق على اختلاف أشكالها وأسمائها.

وقد فشت مؤخرًا عادة ارتياد بعض الشباب أماكن الشرب، وموقعها غالبًا بين الرياض والغياض، وعلى ضفاف الأنهار، وتكون أغلب تلك الاجتماعات متجانسة، فتراهم جماعات متشاكلين حوك مناخذ الشرب، يجتمع كل أليف إلى أليفه، وتجد جالسًا إلى كل منضدة غالبًا رجل من أرباب الصوت الحسن ينشد أصحابه الأناشيد الحسان، ومنهم من يختلف إلى زمرة من الموسيقيين الفنانين، يصحبون آلاتهم كالعود والكمنجة والقانون والدائرة والناي، ومنهم من يقتصر على بعض تلك الآلات، وتجري غالب الاجتماعات في أماكن خاصة. وأما المحال العامة للشرب فتحوي من كل شيء أحسنه كالمشدين والمغنين والآلاتية، وتسمى تلك الأماكن الجنائن، تضم غالبًا الماء والخضرة والشكل الحسن، وتبتدئ وقت الغروب وتنتهي عند منتصف الليل.

هذا مجمل عادات دمشق ولا تختلف عنها عادات سكان القطر في الشمال والجنوب والغرب اختلافاً يذكر ما خلا بعض عادات دينية عند الطوائف غير المسلمة، وفيما عدا ذلك فهم متشابهون في أخلاقهم الاجتماعية، ويمتاز سكان هذا الديار من غيرهم في المحافظة على ما ورثوه من بعض أخلاق الفاتحين العرب منذ نيف وثلاثة عشر قرناً وهي الرزانة والوقار والصبر على المصائب، ويلتزمون هذه الرزانة وهذا الوقار في أعمالهم ومجالسهم بل وفي بيوتهم وبين ذويهم ومجالس سمرهم وشرابهم وأنسهم، ويكرهون من يتصف بالطيش والرعونة والشكوى الصريحة ويتجنبون مجالسته، ولكل عادة من هذه العادات شذوذ وهي قليلة.

عادات الحلبين^(١)

للحلبيين المسلمين عادات يستعملونها في أفراحهم وأتراحهم نذكر منها شيئاً يحفظه التاريخ إلى ما بعد أن يحتاجه تطور الزمن فيبقى ذكره من مستغرب الأخبار وروائع الآثار فنقول:

مما يستعملونه في قضية الولادة أن الطفل متى تمخضت به أمه وولده تلمسه القابلة، فإن كان غلاماً صلت على محمد وإن كان جارية ترضت عن فاطمة الزهراء، ثم يقدم إلى أحد أقاربه فيؤذن في أذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه ويطبخ لأمه حلوى بالشونيز والجوز لتكثير لبنها وتقتصر بالشرب على ماء الحمام المنقوع فيه أصول البنفسج مدة أسبوع ويرسل أحد أصدقاء الأسرة مائدة كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلاية معها أباليج السكر، ويولم أهل المولود في اليوم السابع

(١) هذا الفصل لكامل الغزي أخذاً من كتابه «نهر الذهب».

وليمة حافلة بين أطعمتها حلوى قوامها الدبس والشمرة تعرف باسم «المغلي»، وقد يحضر في ليلة تلك الوليمة قيان للنساء ومطربون للرجال، وكل صديق لأبوي المولود يقدم هدية بعضها مأكول وبعضها مما يتجلى به ومنها مسكوكات ذهبية قديمة تعلق في قلنسوة الطفل واسم ذلك «تهنائة»، وبعد مضي أربعين يوماً على الولادة تؤخذ النفساء إلى الحمام مع أترابها من النساء ويكبس بدنها «بالشدود» وهو المردقوش والخزامى المغربية. وإذا شعرت أم الطفل بمغص في بطنه تمضغ له لب عجو الدراقن وتعصر لفظتها في فمه فيسكن مغصه وتدهن مرقاه بالزيت وتذر عليه مسحوق ورق المرسين، ومتى بدأت أسنانه بالخروج تسلق له شيئاً من الحنطة تدوفه بالسكر ولب الجوز والبوز والفسق وتطعمه منه وتفرق بآقيه على الأهل والجيران.

متى بلغ الطفل الخامسة من عمره يرسل إلى المكتب أو إلى الشيخة أو المعلمة إذا كان جارية، ومتى ختم تعلم القرآن العظيم تعمل له حفلة تسمى «نشيدة» يحضر فيها إلى منزل الغلام جماعة الشداة والمطربين ودرأوش الطريقة المولوية، وبعد أن تقام نوبة سماح يطاف بالغلام ورفقائه بعض شوارع البلدة وهم ينشدون أزجالاً في المدائح النبوية ماشياً وراء الغلام حامل المبخرة ورجل آخر يثر الشعر على رءوس الناس دفعا لإصابة عيون العُين ثم يعود هذا الموكب إلى منزل الغلام وتبسط له الموائد فيأكل وينصرف ويملاً جيب كل ولد فستقاً وزبيباً مضافاً إليهما شيء من النقود. وقد يختن الولد في هذا اليوم إذا لم يكن ختن من قبل. واعتاد كثير من الناس ختن أولادهم في اليوم السابع من ولادتهم كما اعتادوا ثقب شحمة أذن الأنثى فيه، وقد يفرد لختان الغلام حفلة يدعى إليها الأحباب والأصحاب ويولم لهم ثم يزين الغلام بالحلي والحلل ويركب على برذون مزين ويركب وراءه رديف يقال له: العريف، ويطاف

به في الشوارع يتقدمه أخذ مشايخ الطرق راكبًا على برذون مجلل بسجادة الإرشاد مكللاً رأسه بطيلسان أحمر في يده عقافة يشير بها إلى جماعته وهم سائرون أمامه يحملون أعلام طريقتهم ويضربون طبولهم، وبعد أن ينتهوا من طوافهم يعودون إلى منزل الغلام وتتلّى قصة المولد النبوي وفي ختامها يختن الولد. وقد يرافق هذا الموكب طائفة من الدارعين ولابسي الجواشن والخوذ في أيديهم السيوف والتراس يقفون في فسحات الطرق ويلعبون بعضهم مع بعض بسيوفهم، وقد سار وراء جموعهم رجل يقود جملاً على ظهره منصة مهندمة يقوم رجل يرتدي كسوة نساء عرب البادية يقال له «عبلّة» قد أمسك بيديه صنوجاً يرقص بها حتى يصل إلى دار المختون، وهذا الموكب يسمى «عراضة».

للغلام في أول يوم يصومه من رمضان طبق يملأ بأنواع الحلوى يفطر عليه. وإذا بلغ الغلام مبلغ الرجال وتاق للزواج تأخذ أمه وذوات قرابته يلتمسن له زوجة تنطبق أوصافها على أذواقهن. والأغنياء يغالبون بالمهور، وربما بلغت جملة المهر ألف ذهب عثماني وزيادة، والمهر عند الفقراء لا حد لأقله والمعجل منه ثلثاه والمؤجل الثلث الباقي. والزوجة الغنية تضيف إلى المهر من مال أبيها قدره وربما زادت وتصرف الجميع على شراء أثاث المنزل. وعقد الزواج يكون في بيت الزوجة باحتفال فائق يحضره المطربون ويظاف على الحاضرين بكثوس المرطبات وأنواع الحلوى المجففة. وبعد أن يتم العقد بأيام ينقل الجهاز الذي أعدته الزوجة إلى بيت الزوج بموكب حافل يتقدمه جماعة الحمالين ولاعبو السيوف والعصي، وشدة الأزجال، ويسبق ليلة القران ليالٍ يسمونها «التعاليل» يحضر فيها المطربون والموسيقيون وتحرق الألعاب النارية، وقبل ليلة القران بليتين يدعو أهل الزوجة أقاربهم ويفرق عليهم الحناء ونقوشها فينلن منها على أيديهن ما تناله منها العروس على يديها ورجليها

ومعصميتها وتعرف تلك الليلة بليلة النقش، ثم في صبيحة اليوم الذي يكون القران في مسائه تقام وليمة العرس وتكون الدعوى إليها جفلى يجلس على سماطها من أحب. وفي هذا اليوم يأخذ أهل الزوج الزوجة من بيت أهلها فيركبن العربات المزدانة ويأتين بها إلى بيت زوجها وكن قبل ظهور العربات يأتين بها إلى بيت زوجها ماشيات على أقدامهن يزغردن ولا يمرون بها على باب حمام زعمًا بأن جنه يخطفها. وأصل هذا ما كان يفعله الانكشارية من اختطاف العرائس اللواتي يمررن على حمامهن فكانوا لا يطلقون سراح العروس إلا بعد أن يأخذوا شيئًا من حليها أو نقودًا من زوجها.

في مساء هذا اليوم يأخذ الزوج زينتته في منزل أحد أصدقائه ويحضر إلى منزله بموكبه حافل من المطربين والموسيقيين وهو يسير الهوينى بين شابين يشبهانه يقال لهما: سخاديح، واحدهما سخدوج، قد حملت أمامه مصابيح ضخمة على عتلات في مقدمتهم شدة يترنمون بمواليات كلما أتم أحدهم مواليه يهتف الجمع بقولهم: «الله يساور جوز جوز جيز» تحريف «الله يصور الزوج زوج جهاز». وقدم تقدم صف الزوج صفوف المطربين وأصحاب الأزجال الحماسية وحملة المشاعل ومحرقو الألعاب النارية والمدرعون واللاعبون بالسيوف ألعاب الفروسية إلى أن يصل هذا الموكب منزل الزوج فيدخله وتلقاه عرسه ويضع يدها في يده أقرب إنسان إليه ويدخلان الغرفة المعدة لهما ويفتح على رأسيهما طيلسان وردى اللون. وفي صبيحة تلك الليلة يدخل الزوج الحمام ومعه الجم الغفير من الخلان والإخوان، وبعد خروجه منه يعمل له أصدقاؤه الولايم على عدة أيام وهي المسماة بالصيحات. وفي اليوم الخامس عشر يولم الزوج لأهل زوجته وليمة شيقة تسمى عزيمة الخامس عشر.

ومما يستغرب من عادات بعض الأهلين من قطان أطراف حلب أنهم يفرشون ليلة القران في غرفة العروسين قטיפَةً يجعلون رءوس ما التوى من ريشها إلى جهة صدر الغرفة، فإذا وجد الزوج الوردة زراً غير باسم الثغر حول القטיפه أي جعل رءوس ما التوى من ريشها إلى جهة عتبة البيت وإلا أبقاها على حالها، وفي الغد يقوم الخصام سراً، فإذا لم يقع التراضي بين الطرفين فإنهما يعلنان القضية وتعلو الضوضاء وتشتد الضجة ويفتضح الحال.

ومما يستعمله الحلبيون المسلمون في أتراحهم من العادات هو أن بعض سكان أطراف البلدة يُحضر حين وفاة رجالهم الأعراء عليهم - نائحات بدويات ينثرن على رءوسهن الحناء ويشدن في أوساطهن المآزر ويخدشن خدودهن ويسودن وجوههم بسخام القدر، وحين خروج النعش من الدار يضربن جبهة بابها بإناء خزفي زاعمة أن هذا العمل يمنع من أن يلحق بالميت غيره من أهله، ونعش الميت يسيرون به وهم يجهزون بكلمة التوحيد، وقد يكون في مقدمته من يؤذن أذان الجوق وينشد المدائح النبوية، وقد يمشي أمام النعش جماعة الدراويش المولوية. وإذا كان الميت من مشايخ الطريق يتقدم جماعته ويحملون نعشه ويتجاذبونه ويتماسكون به كأنه يحاول الطيران وهم يمنعون عنه وينادونه باسمه ويضرعون إليه بأن يعدل عن الطيران، وحملة أعلام الطريقة يفعلون بأعلامهم فعل حملة النعش به فيركضون بها إيهامًا بأنها تجرهم وتحاول أن تطير بهم إلى غير ذلك من الحركات التي ينكرها الشرع. إذا وصل النعش إلى القبر حطوه إلى الأرض وأخرجوا الميت منه ولحدوه، ومن الناس من يودع في نقرة من جدار القبر قنينة فيها شيء من زيت الزيتون قصد تعتيقه ليتفع به بعد من يكون مصابًا بالريح فيطلي منه بدنه فيبرأ.

في الليالي الثلاث الأولى من الوفاة يجتمع في المسجد الحي بين العشائين نفر من الرجال والأطفال يكررون كلمة التوحيد وفي أيديهم سبحة كبيرة ينتظم في سلكها خمسمائة حبة كل حبة منها في حجم الجوزة، فإذا دارت دورًا سكتوا وتلا إمام المسجد شيئًا من القرآن، ثم تدور دورًا آخر في ختامه ينتهي الذكر ويفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة بالغريبة. في صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع الجم الغفير على القبر وتمد البسط على أطرافه وتوضع عليه قمام ماء الورد وتنتثر فوقه الزهور ويفرق على الحاضرين أجزاء الربعات وبعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس حلقة ويذكرون الله تعالى ويفرق على الفقراء شيء من النقود ويعزي الناس أهل الميت وهم في المقبرة. وهذا اليوم يسمى الثالث وفيه وفي كل من اليوم السابع واليوم الأربعين واليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من القراء إلى بيت الميت يتلون القرآن العظيم في نهارهم، وفي المساء تبسط الموائد ويفتح باب الدار للفقراء فيأكلون ويزودون.

ومما اعتاده الحلبيون في أول يوم من المحرم أن يكون فطورهم من طعام حلوى، وأن يخرج جماعة من العجزة يتصدق عليهم الناس بشيء من البرغل يقال لهم: «فاز من صلى» سموا بلازمة زجل ينشدونه على الأبواب وهو «فاز من صلى على تاج العلى طه النبي المصطفى جد الحسين» وبعض الناس يسمونهم الحسينية. وهذه العادة موروثه عن الطوائف العلوية التي كانت تقطن حلب. وفي يوم عاشوراء يوسع الناس على عيالهم بالمطاعم ويطبخون طعام الحبوب الذي يشير إليه ابن منير الطرابلسي الشاعر بقوله:

وسهرت في طبخ الحبوب ب من العشاء إلى السحر

وفي يوم عاشوراء كانت الحكومة قبل خراب مشهد الحسين تولم فيه وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه وينشد أحد المطربين قصيدة ابن معتوق في رثاء الحسين التي مطلعها: «هَلْ المحرم فاستهل مكبراً»، وتعطل الحكومة أيضًا في آخر أربعاء من صفر وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وتحتفل بتلاوة قصة المولد النبوي في الجامع الكبير، ويستمر الناس على تلاوة هذه القصة ليلاً ونهارًا إلى آخر هذا الشهر، ويولمون من أجلها الولائم العظيمة،

وتعطل أيضًا في اليوم السابع والعشرين من رجب وتحتفل بقراءة قصة المعراج في المشهد المذكور، ويجتمع الناس ليلة النصف من شعبان في المساجد بين العشائين ويقرون سورة يس ثلاث مرات ويلقنهم الإمام دعاء ليلة النصف المذكور في كتاب نزهة المجالس وغيرها من الكتب، وتهجر المعاصي في شهر رمضان ويكثر تردد الناس على الجوامع والمساجد ويقبلون على تلاوة القرآن، ومنهم من يقصد المقاهي ليلاً للتفرج على المشعوذين والمتصارعين.

ويخرج قرب السحر طبال يوقظ الناس للسحور ويعقبه شدة المدائح النبوية في منارات الجوامع. وبعد صلاة العيد يخرج الناس إلى المقابر لزيارة موتاهم، وكان يخرج قبل العيد بيومين رجل سُخْرَة معه حمار مدرع بالودع والخرز والأجراس يستجدي الناس بالرقص ويضحكهم بحركات حمارة يقال له: جحش العيد. وكان يخرج في أيام العيد ولدان قد صبغوا أجسامهم بالسواد وعلى رؤوسهم الطراوير يستردون إحسان الناس بالرقص والقفز ويقال لهم: «بيضة بيضة»، وبعد انتهاء العيد يأخذ رواد الحجاز أهبتهم ويسافرون لأداء فريضة الحج ويحتفل أحبابهم بوداعهم، وفي عيد النحر يقبل الناس على الضحايا. وفي تاسع آذار الرومي الشرقي يخرجون صباحًا إلى ضاحية البلدة لاستنشاق نسيم الصبا

التي تهب في ذلك الوقت كما يزعمه بعض المنجمين. ويكثر خروج الناس في أوائل أيام الربيع إلى جبل الجوشن وما قرب منه، فإذا نور الشجر وأورق يترددون على البساتين. وفي شهر نيسان يحتكرون مثنواتهم من السمن والجبن والفحم، وكان النساء في يومي أربعاء الزوبعة وخميس البيض (ويكونان قبل يوم الأحد، وهو أول يوم من عيد الفصح) يخرجن إلى البساتين ويمضين فيها سحابة يومين ويفعلن مثل ذلك في يوم الإثنين الذي يلي عيد الفصح، ويزعمن أن من لم يخرج إلى النزهة في هذه الأيام لا يأمن الصداع ووجع الرأس، إلى غير ذلك من العادات التي بعضها مستحسن وبعضها مستهجن مما هو مذكور في كتاب نهر الذهب مسهبًا مفصلاً.

وأما ما يستعمله النصارى الحلبيون من العادات في أفراحهم وأتراحهم فمنها أن يريد الزواج منهم يبدأ بتصفح وجوه النسوة في مجامع الناس وحين خروجهن من الصلاة، فمتى أعجبه أثنى سعى بإعلامهما أنه يرغب أن تكون له زوجة وهذه هي الخطبة الأولى، ثم يسعى بالخطبة الثانية وهي أن يرسل أحد أوليائه مع كاهن طائفته إلى ولي مخطوبته فيعلماه أن موليها يرغب أن تكون موليته زوجة له، فإذا أجاب طلبهما وضع الكاهن يد أحدهما بيد الآخر علامة على الرضى المتبادل، وبعض الكهنة يسأل المخطوبة بقوله: هل رضيت أن يكون فلان زوجًا لك؟ فتطأ رأسها بالإيجاب وحينئذ يقدم له قطعة من الحلبي مرسلة من زوجها، وبعد ذلك يشرع الخاطب بزيارة مخطوبته، وطالما نهى الكهنة عن كثرة هذه الزيارة فذهب نهيهم سدى. وبعد مرة يرسل الكاهن إلى أهل المخطوبة ليتفق معهم على ميعاد عقد الخطبة وليقدم هدية الخاطب إلى مخطوبته، وهذا العمل يسمى المشورة وقد ينكث أهل المخطوبة ويفسخ عقد الخطبة فيقيم الكاهن الحجة على أهل المخطوبة ويغرمهم ما

أنفقه الخاطب في مدة الخطبة، أما إذا لم يفسخ عقد الخطبة فإن رقاع الدعوة ترسل بتوقيع الوليين إلى المدعويين لحضور حفلة الإكليل، فيقبل المدعوون إلى بيت الخاطب في اليوم المعين ثم يتوجهون إلى بيت المخطوبة

فيضعون عليها خمارها وأزهارها وتكون جميع ثيابها بيضاء ويأتون بها في وقت العتمة إلى بيت خاطبها وهي تسير الهوينى بين امرأتين على شاكلتها وأمامها المصاييح وجماعة الموسيقي، حتى إذا اقتربت من بيت خاطبها خف لاستقبالها فخاصرها ودخل بها إلى منزله وانتظم عقد المدعويين، ثم يقف العروسان بين يدي مطران الطائفة ومن معه من الكهنة وهم متحلون بملابسهم الكنائسية ويشرع المطران يترنم بآيات من الإنجيل مخصصة بعقد الزواج ويجري بين العروسين الإيجاب والقبول ويلقي عليهما النصائح ويأمرهما بالتحابب والطاعة أحدهما الآخر للآخر، ويستغرق ذلك ساعة من الزمن. وفي الختام يرفيهما هو والحاضرون ثم تعزف آلات الطرب وتدور أقداح الراح فيرقصون ويمرحون إلى الهزيع الأول من الليل، فيقدم للحاضرين سفرة «الدخلة» وهي قطع من لحم الدجاج الهندي والهضم المحمضة المعروفة بالمخللات والخبز الحواري وغير ذلك، وبعد أن يتم الحاضرون أكلهم يعودون إلى السماع والطرب، ثم في منتصف الليل يقوم بعض الأدباء ويهني العروسين بقصيدة، وفي الصباح يقدم للحاضرين الفطور من معمولات اللوز الهندي «الشكولاتة» مع بعض الحلاوى واللحوم المقددة، ثم يتحلق الحاضرون حلقًا ويجلسون العروسين بالرقص العربي والكردي ثم ينصرفون.

وفي هذه الصبيحة يهدي أحد أبوي الزوج إلى الزوجة قطعة من الحلبي تسمى الصبيحة وفي اليوم الرابع يحضر المدعوون إلى منزل الزوج لهتهنة العروسين، ثم في اليوم الثامن يزور العروسان أصحابهما فيحيون

لهما ليلة طرب، ثم في اليوم الثاني عشر يولم الزوج إلى كهنة الطائفة، وبعد شهر يطوف العروسان منازل الألى كانوا مدعويين ليلة القران ويردان إليهم الزيارة.

المهر يدفع من الزوجة إلى الزوج عكس ما هو معروف عند المسلمين ولا حد لأكثره إذا كانت الزوجة غنية والرغبة منها في الزوج فوق رغبته بها وهو يسمى «دوطه» وبعض الكتبة يترجمون هذه اللفظة بكلمة «بائنة»، وإذا كانت رغبة الزوجين في الزواج متساوية فليس هناك دوطة إنما كل واحد من الزوجين يهدي الآخر قطعة من الحلبي قيمتها تناسب ثروته.

بعد انتهاء هذه الحفلات يصرف بعض المتفرنجين شهرًا من حياته بالتغيب عن منزله يسمونه شهر العسل يمضيه الزوجان في موضع نزه جميل يطلقان فيه حرتهما، كأن العروسين يمضيان هذا الشهر في وداع الحياة المطلقة المؤذنة بفراقها لحلول ذلك الضيف الثقيل؛ بل القيد الأبدي الذي لا يحل وثاقه إلا بالموت: عادة أخذها الغربيون عن الأمم الوثنية القديمة كأنها رمز إلى سرعة انقضاء راحة الإنسان بالزواج وطول عنائه بعده؛ ذلك لأن الزوجين لا يلبث فرحهما بعد الاقتران سوى أيام قلائل حتى يدخلوا في العريض الطويل من تكاليف الحياة وأوصابها التي لا تنفذ إلا بنفاد العمر، فما أشبه الحياة وما فيها من الراحة والتعب بإناء مفعم من الصبر قد بسط على وجهه قليل من العسل، وكأن الإنسان لا يضطر إلى استعمال ما في هذا الإناء اضطرارًا حقيقيًا إلا بعد أن يتزوج فكأن مقدار ما يناله حيثئذ من الراحة وما يعقبها من التعب كمقدار ما في ذلك الإناء من الصبر والعسل، فلا يلحق من العسل غير قليل حتى ينفذ ويظهر تحته الصبر، فيجرعه مكرهًا ضرورة عدم إمكان الحياة إلا به، وهذا مصداق قول الناس في الزواج: «فرح شهر وترح دهر».

ومما يستعمله النصارى في أتراحهم أنه متى احتضر المريض يحضر إليه كاهنه ويستأديه واجباته الدينية، وبعد أن يقضي نحبه يتربصون بدفنه مدة أربع وعشرين ساعة يضعونه في خلالها في صندوق من الصفيح، وفي هذه البرهة يرسلون رقاع الدعوة لحضور الاحتفال بالجنائز، ثم في الوقت المعين يضعون الصندوق في نعش مزدان بالأيقونات وأكاليل الزهر فيحمل إلى البيعة

ليصلى عليه، ثم يحمل إلى المقبرة وأمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل ووراءهم عظماء الطائفة وتلامذة المكاتب وحملة الصليبان والشموع، وقد اكتنف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود، وحينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم ويتقدم أحد الأدباء فيرثيه نظماً أو نثراً ثم يوارونه في لحده، ويصطف أهل المتوفى للتعزية ويمر عليهم المشيعون لجنائزته لتعزيتهم وفي مقدمتهم المطران ولقيف الكهنة. ولبعض الأسر الغنية ديماس تحت الأرض مختص بدفن موتاهم يقال له: خشخاشة يودعون فيه النعش دون أن يهيلوا التراب عليه، وقد يكون هذا الديماس بناية تشبه البيت مبنية على وجه الأرض.

في اليوم الثالث من الوفاة يحتفل للمتوفى بصلاة في البيعة يسمونها جنازاً يسرجون فيها من المصابيح قدر ما يقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت وبين كهنة طائفته، وهذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع وفي يوم الأربعين وفي نصف السنة وتمام السنة. وحداد الولد على أبويه ثلاث سنين والأخ على أخيه والزوجين أحدهما على الآخر والأبوين على ابنيهما سنتان.

ومما يستعمله اليهود الحلبيون من العادات في أفراحهم وأتراحهم أن يختنوا الطفل بعد يومين من ولادته، وإذا كان من سبط إسرائيل وكان بكر أبويه وجب على أبيه أن يفتديه من كاهن من سبط هارون يضع الطفل في حجره ويقول لأبيه: هذا المولود حق سبط الكهنة فيستوهبه أبوه منه بمقدار معلوم من الفضة. ومتى بلغ عمر الطفل سنة يأخذه أبواه كل سنة إلى وليمة قدوس أي زفاف يطعمانه من طعام (السيعوداه)، فإذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم، وإذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه «كنفوت» وهو صدره تربط أطرافها الأربعة بفتائل من الغزل ويشد على رأسه وعضده الأيسر «تيفلين» وهو سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر والإصحاح الأول من سفر الوصايا، وحينئذ يعتبر رجلاً متمماً صلاة الجماعة التي لا تتم إلا بعشرة رجال ويرث سهمين من تركة أبيه.

وإذا بلغ الثامنة عشرة وجب عليه الزواج فيباشر الخطبة، ومتى انتقى مخطوبة يكتب بينهما قنيان أي عهد يسمونه شيطارًا يعينان فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين ويذكران ما اتفقا عليه من الشروط، ثم في اليوم المعين تنعقد جمعية يسمونها (كتبة) فيها يكون تسلم الزوج الأمتعة والنقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها إليه، وبعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم «قدوس» فيحضر المدعوون وتعزف آلات الطرب وتدار كئوس ابنة العنب من وقت العصر إلى وقت الغروب ثم يقوم رؤساء الدين ويجرون العقد بين العروسين ويقرأ أحدهم قداشين يقف الزوجان مدة قراءة الأول متقابلين ومدة قراءة الثاني متحاذيين، ويفتح على رأسيهما ملاءة من الصوف يسمونها «طليطة» أي طيلسان. وفي هذه الساعة يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه ويشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة لأحد الطرفين، وحين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج يخاطبها بقوله: هاري آت ميقديشت لي بي طباعت

زكيدات موسى وإسرائيل) أي: أنت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى وإسرائيل. ثم يتقدم الحاخام الكبير ويديه كأس من الخمر فيبارك عليه بدعاء طويل باللغة العبرانية ويشرب منه جرعة، ثم يدار على الحاضرين فيشرب من شفافته كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر، وبعد ذلك يدخل الزوجان البيت المعد لخلوتهما، فإذا التقى آدم مع حواء في تلك الليلة وجب عليه أن يمسك عنها مدة خمسة عشر يوماً، وأن ينظبل -أي ينغمس في حوض خصوصي- وعلى الزوج أن يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين ويولم لهم، وعلى رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما يبارك على كأس الخمر يوم الزفاف.

ومما يستعملونه في أتراحهم أن المريض متى احتضر جلس عند رجله رجلان يذكرانه بقولهما: (شيماع إسرائيل أدوناي ايلو هينو أدوناي احاد) أي: اسمع يا إسرائيل الديان إلهنا الديان واحد. فإذا قضى نحبه وضعوه على «اللوحات» أي: المغتسل وغسلوه بالماء الفاتر وأدرجوه في ثوب من الكتان يعيبونه بالتقريض والحروق كيلا يطمع به نباشو القبور، ثم يضعون جثة الميت في «الأورت» أي: النعش ويحضر أحد أقربائه ويقرأ عليه قداساً؛ أي يصلي عليه صلاة الميت، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص وعلى كل من مرت به الجنازة أن يمشي معها أربعة أذرع أو أكثر ويطلب من الميت السماح، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيسة قرأ عليه أحد أقربائه قديشاً آخر، ثم يحملونه إلى مدفنه ويوارونه في ترابه ويقوم أحد الحاضرين ويبارك عليه بقوله: (باروخ ديان ها ايميت) أي: تبارك من شرع الحق، ثم يقرأ ولد قديشاً ثالثاً ويعود هو ومن معه من الأقارب والأصحاب إلى بيت الميت، وفي أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه ويقول: (عينينو لو رأو ويادينو لو شافيخو بيدام هذه)

أي: عيوننا ما رأت وأيدينا ما سفكت هذا الدم. فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له وخرق ثوبه من زيقه وهو يقول: (باروخ ديان ها ايميت)، ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين ويبارك لهم بقوله: (باروخ ميناخيم ايليم) أي: تبارك الذي يسلي الحزين. وعلى ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعلون فيها علًا مطلقًا ويسمونها «التأيل» أي: الحداد. وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء وهكذا في اليوم الثلاثين ويمرور تسعة أشهر ومرور السنة اهـ.

عادات لبنان وأخلاقه

كانت عادات لبنان إلى أواخر القرن الماضي، قبل أن يبدأ أهله بالهجرة إلى أميركا، كعادات معظم جبال الشام، تغلب عليها السذاجة والفترة السليمة، وفي أهله مضاء ووفاء وإباء. يقل الكرم ويكثر الحرص في أهل القسم الشمالي منه وهم الموارنة والروم، وكان العكس في حال أهل القسم الجنوبي وهم الدرروز والسنة والشيعية والنصارى الذين كانوا من أصول عربية، فإن أخلاقهم ظلت عربية بحتة، ولهم في باب الكرم وحفظ العهد فصول. وقد يكون الشماليون ألين عريكة وأقرب إلى السكون في الأحايين؛ والجنوبيون أشد بأسًا وأقوى شكيمة. ودخل تبدل كبير في العادات بانتشار المدارس الأجنبية في الجبل منذ نيف وستين سنة، واستبدلت العادات الإفرنجية ببعض العادات الوطنية إلا قليلًا، وحمل الذين عادوا من المهاجر بعض عادات من نزلوا عليهم، فأصبحت عادات الجبلين مزيجًا من الغربية والشرقية، ويكثر التقليد في سكان الشمال أكثر منه في سكان الجنوب. وهناك فروق ليست بقليلة بين سكان الجرود الشمالية والجنوبية.

كان اللبنانيون من أول من نفخ في ديارهم بوق الهجرة إلى أميركا، ولبوا دعوتها سراعًا قبل غيرهم من الشاميين؛ لأن حاصلات أرضهم قليلة لا تكفي لعولهم، وكانوا من قبل مولعين بمواطنهم، لا يحبون أن ينتقلوا ولو في أرجاء هذا القطر، وكان من يسافر من إحدى قرى الجبل إلى دمشق يضرب به المثل في بعد الهمة وكثرة الشجاعة، وكثيرًا ما كانوا يتغنون بقولهم:

جـوزك يـا مـليحـة راح عالـشام وحـده

وكان أقصى ما يبلغه تصورهم من البعد «أنطاكية» شمالي الشام و«دنقلة» في السودان، ويقال إلى اليوم: «أوصلك إلى دنقلة». وكان إذا نشط أحدهم للسفر إلى مصر أو الأستانة، يعد كمن وصل إلى المريخ، يقصدونه من القاصية ليسمعوا ما يقص عليهم من عجائب رحلته، فلما بدءوا بالهجرة وكثر عديدهم، واستسهلوا ركوب المخاطر في بلاد المهجر، ونجحوا وارتاشوا، تبدلت عقليتهم بعض الشيء، وهم كأكثر من يهاجرون في طلب الرزق يعتمدون على أنفسهم ومضائهم وتضامنهم، لا علم يحميهم ولا دولة يهتمها أمرهم، حملوا في جنوبهم عزماً وحزماً، وحملوا أيضاً روح التحزب والفرقة الذي امتازوا به لما نشأهم عليه رؤساؤهم. وكان المتعلمون منهم في هذه السبيل أشد مراساً من العوام. ولما كان العائدون من طبقة الفلاحين والعاملين إلى قرارهم من ديار المهجر، أكثر من الراجعين من أصحاب المعامل والمزارع والتجارات، وبعبارة ثانية أن عدد الراجعين الأميين كان أوفر من عدد الأبيين من المتعلمين والمغتنيين، أصبح تسرب العادات الغربية لا يكاد يشعر به بين العامة على كثرتهم، وهو ظاهر محسوس بين الخاصة على قلتهم.

وقصارى ما يقال في هذا الباب أن أهل لبنان أخذوا مدينة الغرب من مدارسها وبالاختلاط بأهلها وراء البحار بلا قيد ولا شرط، على حين كان غيرهم ولا يزالون يأخذونها ببعض الحذر والحيطة. ولبنان منذ عهد متناول كانت علاقته بالغرب أكثر من غيره من أهل هذه الديار، والروح اللاتيني ترفرف عليه، يحمله إلى ربوعه الرهبان الموارنة من رومية وغيرهم من دعاة النصرانية والاستعمار، ولو مكنت طبيعة الجبل من إنشاء مدن كبرى فيه، لظهرت هذه الفروق على جليتها في أهلها، كما تتجلى مثلاً في أهل المدن الداخلية.

لم يبرح الدرّوز يعدون في المحافظين على عاداتهم القديمة وأخلاقهم العربية من إباء ووفاء وحسن عشرة وكرم وحسن وفادة، يعظمون رؤساءهم ولو كانوا في سن صغير جداً. والدرّوز، ما خلا الطبقة المتمدنة منهم التي تلبس السراويل والمعاطف والسترات والأقمصة الإفرنجية على الأساليب الغربية، ما زال جمهورهم يلبس لباساً واحداً في جميع البلاد التي يتزلونها: عمائم بيضاء وقفاطين من الأقمشة الغليظة القطنية وأعبئة قصيرة مخططة وأحذية بلدية ساذجة، كأن لباسهم لم يتبدل منذ حلوا هذه الأرض، ونسأؤهم محجبات قليلاً يسبلن على رؤوسهن شاشاً أبيض، فإذا رأين غريباً أظهرن إحدى عينيهن فقط أي أن حجابهن الحجاب الشرعي.

كان أهل لبنان قبل حادثة سنة (١٨٦٠) يقسمون إلى خاصة وعامة، فالخاصة هم الأمراء والمقدمون والمشايخ، والمشايخ على ثلاث طبقات؛ مشايخ الإقطاع، والمشايخ الذين يدلون إلى مشايخ الإقطاع بنسب، وكانوا يعرفون بمشايخ الطبوق، ثم مشايخ الطبقة الثالثة. وتختلف مصطلحات هذه الطبقات باختلاف العصور، وكلامنا هذا يتناول الأخيرة منها التي ثبتت إلى ظهور الجبل بمظهر الاستقلال الداخلي بعد حادثة الستين. ولهم

عادات راسخة في خطابهم وكتابهم ومجالسهم وأفراحهم وأتراحهم، أمست عندهم بمثابة القواعد العامة، وتختلف عن مجموع ما هو من نوعها في سائر الأقطار، والسُرُّ في ذلك أن لبنان مدين بظهوره بمظهر المنعزل المستقل منذ عهد المماليك والعثمانيين لأمرء كانوا يتلون جباية الجبل على سبيل الإقطاع مقابل مال يؤدونه، وهم ينصرفون إلى توظيف طبقات الناس، وتصنيف أهلها على ما يرون. ومما أثبت هذه الأصول بين أشرف لبنان أن الأرستقراطية فيهم كانت ثابتة لا تتحول عنهم لفقر أو غيره. ويغلب على الظن أنهم جمعوا في عاداتهم بين العادات العربية، وشيء من العادات الغربية اكتسبوها في مخالطتهم الصليبيين.

وفي الحق أن لبنان القديم وليد أمرائه من المعنيين والتنوخيين والشهابيين واللمعيين والأرسلانيين وآل علم الدين. وقد أقر هذه العادات المشايخ الجنبلاطية والعمادية والنكدية والتلاحقة والملكية وبنو العيد، وفي المسيحيين آل الخازن والحداح والظاهر وحبيش وغيرهم. وأخذت تحتفظ كل طبقة بأصولها وعاداتها، لا يباح لأهل طبقة أن يتزوجوا من أهل طبقة أخرى، ولا أن يختلطوا بهم الاختلاط اللازم. وكان الجلال الوقار يغلبان على أهل كل طبقة، ويعدون من أسباب السقوط أن يسف ابن أسرة من أسر الأمراء أو المقدمين أو المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته، ولذلك غلب ضعف الأجسام على بعض هذه الطبقات، وتأصلت فيها بالوراثة الأمراض العضالة لخروجهم عن الطبيعة في الزواج.

وكانت لهم عادات نشأهم عليها حكاهمهم في الإسلام والجلوس والخطاب، وهم يغالبون في الحرص على كرامتهم، ويعد أكبر أعيانهم من الشرف أن يكتب إليه الحاكم ويلقبه بالأخ العزيز ويوقع له بالمحب المخلص، ويكتب الأمير إلى الطبقة الثانية من الشعب وهي طبقة المشايخ «عزيزنا» أو «أعز المحبين» أو «حضرة عزيزنا» أو «جناب» بدل «حضرة».

وإذا كان طبق الورق صغيرًا أو كبيرًا، أو كان توقيع الحاكم في أسفل الكتابة أو في أعلاه، فإن لكل ذلك معاني عندهم. والغالب أن القوم كانوا لقلة أشغالهم يتسلون بمثل هذه التفاهات، ويضعون لها قواعد من عند أنفسهم، ويتنافسون في رضا الحاكم والوصول إلى مجلسه وتقبييل يده وثوبه، تأصل هذا الداء فيهم إلى العصر الأخير، فكان من كتب له هذا الشرف تناقل خبره أهل بيته خلعًا عن سلف وعدوه في مفاخرهم. وقد كثر فيهم حب الظهور حتى أن المرء ليبيع بستانه وداره ويبدل ماله لينال عملاً صغيرًا في الحكومة أو ليكتسي الحرير هو وعياله ويتعاطم على أهل قريته، ومنهم من ابتعدوا عن مواطن الشرف ليتزلفوا إلى من اعتقدوا أن في أيديهم إسعادهم. وكم من بيوت خربت بسبب هذا التمجيد بالباطل والتقرب من أصحاب السلطان بفساد الأخلاق.

وكانوا إلى عهد قريب يقدمون الرجال على النساء في إعطاء القهوة أو الخمر، يرفعون مقام الرجل فوق مقام المرأة، ولا يزال أثر ذلك ظاهرًا في الطوائف الإسلامية، فلما اقتبسوا المدنية الحديثة أصبح الرجل عند المسيحيين لا شيء تقريبًا في بيته، والحكم لامراته تصرفه على هواها، خصوصًا إذا كانت أكثر تعلمًا منه، أو كانت أسرتها أغنى من أسرته وجاءته ببائنة أو جهاز. وهذه الأخلاق ماثلة في بيروت وفي بعض الأقاليم المكتظة بالسكان.

ويحترم الأولاد آباءهم كما كان ذلك في سائر أرجاء القطر، على صورة فيها التشدد الزائد، حتى إن الولد لا يكاد يجالس أباه ولا يقعد أمامه، ولا يؤاكله ولا يدخن أمامه ولا يرفع صوته، ولو تزوج وأولد، ولا سيما في البيوت التي احتفظت بتقاليدها. وكانت العادة أن لا يتفرق أهل البيت الواحد مهما كثر أفراده، يسكنون في دار واحدة، وإذا كانت الأسرة فقيرة ففي غرفة واحدة. وكثيرًا ما يخصون الولد الأكبر في الإرث بشيء

من العقار أو الأرض أو المال، يؤثرونه به على إخوته، لاحتياجه إلى الظهور وحفظ كرامة البيت وقبول الضيفان، والغالب أنهم يحرمون الابنة إرث أبيها؛ لثلا تنتقل الثروة إلى أسرة أخرى، شأن كثيرين من المنحطين؛ بل شأن من يعدون أنفسهم في الراقين أيضًا.

كان اللبناني يتزوج في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره ولا سيما في الطوائف الإسلامية، والمسيحيون قد يتأخرون إلى الثلاثين وبعضهم إلى الأربعين، وقد يخطف العروس عروسه في بعض الطبقات، إذا كانت من طبقة غير طبقتة، وتظاهر أهلها بأنهم يأبون زواجه، أو لعداء بين أهل الخاطب والمخطوبة، أو لعدم الكفاءة في النسب أو المال، وكانوا يحبون كثرة النسل بخلاف ما نراهم اليوم بعد الهجرة، فإنهم أصبحوا على مثال الأمم التي تريد تقليل الذرية في البيت ما أمكن حتى لا يدخله الفقر، وكانوا يعدون كثرة العيال من اليسر والبركة، ويقلقون لمن يتأخر حملها من نسائهم، ويشرعون بمداوتها أو وضع التعاويذ المصطلح عليها بينهم، وينذرون النذور إن رزقت ولدًا، يقدمونها إلى قديسهم وأوليائهم، ولهم كغيرهم خرافات كثيرة منها تخزيف الأولاد في صغرهم بخيالات، فينشأ الولد عند بعض المسيحيين جبانًا، والدروز يلقنون أولادهم الشجاعة والفروسية فيأتون شجعانًا أقوياء، ولذلك كان الدروز منذ القدم في هذا الجبل على قلة عددهم يخاف جيرانهم بأسهم، وقد زاد هذا الجبن كثيرًا من انتشار التعليم ومعروف قدرة الحياة، فأصبح يجبن من لم يكن يجبن، ونزعت الأخلاق الحربية إلا من الدروز، وأصبح القوم يؤثرون الراحة ويتطلبونها حيثما وجدوها، ويزهدون في سكنى جبالهم على كثرة غرامهم بها، وتمجيدهم لهوائها ومائها ومناظرها وهنائها. وربما كان أهل لبنان من أكثر الشاميين اقتدارًا على الإعلان عن أرضهم، والإعجاب بجبلهم، والتبجح بثروتهم وأثاث بيوتهم، وتمجيد رؤسائهم وعلمائهم وأدبائهم،

وهذا مما ساعد على إعمار الجبل بما جلبه المهاجر اللبناني من المال إلى أرضه، وسمت الهمم بأهله أن يعمره هذا العمران الواسع بالنسبة إلى البقاع الأخرى، لولا ذلك لكان كسائر جبال الشام انحطاطاً وفاقاً.

تسربت العادات الغربية إلى لبنان أكثر من غيره، فبعد أن كان اللبناني يأكل وأهله وضيوفه على سفرة في الأرض أو على خشبة مستديرة من صحيفة واحدة، بأدوات منها الخزف ومنها ملاعق من الخشب من صنع أرضه، أصبح يجلس إلى خوان وأمامه صحاف وملاعق وشوكات وسكاكين ومائدته مغطاة بثوب أبيض، وعلى يده منديل الغمر أبيض، وألوان الطعام تأتيه إرسالاً، وأكثر هذا محسوس الأثر بين المسيحيين ولا سيما سكان الساحل. وقد بلغ ببعضهم حب التقليد أن أصبحوا لا يكتفون بخمر أرضهم، ويتغالى بعض أغنيائهم المترفين فيجلب خمور الغرب يسقيها ضيوفه على مائدته. وغدا لا يطيب له الرجل والموايا والمعنى والقراديات والغناء العربي والقصائد العربية، وكانت تنبسط أرواح أجداده إلى سماعها، بل يحاول أن يسمع النغمات الإفرنجية لأنها أجمل وهو «ففرنج» و«تأورب» ويحب أن يقطع صلاته مع آبائه.

وهكذا يقال في الرقص والألعاب كلها، فإنها أصبحت بين الطبقات المتعلمين إفرنجية محضة في بيروت وفنادق لبنان الكبرى، وقد ولع بعض النساء في بيوت الراقية على الطراز الحديث بالرقص والمخاصرة والمقامرة ولا سيما في بيروت، ولو عا لا تكاد تجد له مثيلاً فيما بلغنا وعرفنا من أخبار الأقطار الغربية. فقد ترى البيروتية ولا سيما من المسيحيات ترقص من الهزيع الأول من الليل إلى الساعة الثالثة والرابعة صباحاً، وترى السيدة المتقدمة في السن منهن تجلس إلى منضدة القمار تقضي الساعات الطويلة، وقد يكون بناتها الفتيات واقفات ينتظرنها ليذهبن إلى النوم وهي مستغرقة. وكثير عدد النساء اللاتي فقدن صحتهن

وشرفهن لشدة ولوعهن بالقمار والرقص، وإذا رأيت أزياءهن، حسبتهن أوريبات وزيادة أفرطن في التقليد، وغرتهن الظواهر من مدينة الغرب فاجتزأن بها، وكانت المرأة المسيحية في جنوبي لبنان في القرن الماضي تتحجب وتتجافى عن غشيان مجالس الرجال من غير محارمها.

وفي أندية بيروت في الشتاء والفنادق الكبرى في جبل مدة الصيف نموذج من الحياة البيروتية التي أصبحت مزيجًا غربيًا من الأخلاق والعادات، يبدو فيها التكلف والتصنع، ويفقد منها الروح العربي، وليس المسلمون فيها على المستوى جيرانهم في النهوض الاجتماعي حتى ترسم لهم الآن صورة بعينهم. وقد أخذت بعض البيوت التي أخذت المدنية الحديثة لا تتكلم في بيوتها أو مجالسها واجتماعاتها إلا بالفرنسية وقليل منها بالإنكليزية، أو يمزجون لغتهم الأصلية باللغة التي تعلموها بعضها في المدارس، وأصبحت معظم عادات السكان إفرنجية مقتبسة منقولة لا أصلية أصيلة.

وأنت إذا دخلت اليوم دار لبناني متعلم ممن كتب له السفر كثيرًا، ورأيت العادات القديمة محفوظة يأخذك العجب؛ لأن اللبناني يحاول أن يقلد، ولطالما عولج في هذه السبيل حتى تنزع منه عاداته وتقاليده، ويلحق بالإفرنج في مناحيه منازعه. ومن أشنع ضروب التقليد أنه أخذ بعد أن تعلم بعضهم في المدارس تعليمًا ناقصًا أتر يستعمل في سلامه وحديثه بعض ألفاظ إفرنجية، تساوي في ذلك البحري الجاهل والتاجر المتمول، فصارت أحاديثهم مزيجًا من العربية والإفرنجية كعاداتهم وأخلاقهم. وأثبت ابن هذا الصقع أنه ما استطاع أن يتخلى عن القديم برمته، ولا استعد لأن يقتبس الجميل من الجديد بجملته.

واللبناني أكثر من غيره من سكان هذا القطر اقتصاداً وتؤدة، ومعرفة بأساليب الحياة، ويعد همم، وشدة حذر. وهو نظيف لا كابن الجبال الأخرى، وفي مسكنه وزراعته وصناعاته شيء من النظام. وقد تبيت في بيت الفقير منهم في إحدى المزارع الحقيرة، ولا تستنكف من مؤاكلته، ولا تأنف من النوم في فراشه، والجلوس على مقاعده، والاتكاء إلى وسادته. فالزعامة الزمنية من قبل عند غير المسيحيين، والرياسة الدينية عند المسيحيين، كانتا بين اللبنانيين على أتمهما لسهولة تسلط الزعيم أو الرئيس الروحي على رعاياه، لضيق الرقعة التي يمتد عليها نفوذه. وقد استفاد ابن الجبل من هذه الزعامة ترتيباً ونظاماً على الجملة، وولد فيه حب التضامن والصدق بما يلقيه إياه الشيخ أو الكاعن، ورُبط الناس بقيود يصعب التفلت منها بعض الصعوبة وهذا أقرب إلى النفع من الفوضى تضرب أطناها بين سكان الجبال الأخرى، وجهالة ممتدة الرواق على الكبار والصغار لا تدري متى ينقش ظلامها. وقد اضطّر السكان أن يقلد بعضهم بعضاً في باب الأخذ بأسباب الترقى والتعليم. وكان للموارنة التقدم ثم لمن يليهم من الروم والكاثوليك، ثم يأتي الدروز فالسنة فالشيعة.

فقدت عادات ليست بقليلة من الجبل ومما فقد أو كاد لباس الفلاحين وهي العمائم والسرراويل والعباءات، ولا سيما من القرى التي هي مصطاف البيروتيين والطرابلسيين والمصريين، ولباس جمهور عظيم منهم الآن، هو اللباس الغربي، والقبعة الإفرنجية شائعة الاستعمال في النساء والرجال، ولا سيما عند من تعلموا التعليم الغربي في مدارس التبشير في بيروت وما إليها من القرى والمدن. والقبعة اليوم تهزم الطربوش والعمامة والكوفية والعقال أمامها، كما تنهزم المدنية الشرقية أمام المدنية الغربية طوعاً أو كرهاً، وربما كان لحالة لبنان السياسية مؤخراً

دخل كبير في هذا التمثل السريع. والمغلوب أبدًا مولع بشعار الغالب. وكل ما قام به اللبناني من اقتباس التمدن قبل هذا العهد كان مقدمة إلى هذه النتيجة، ولولا أن الهجرة نخرت عظام اللبنانيين، وتغلغل حبها في شغاف قلوبهم، لكان الخطر كبيرًا من هذه السرعة في اقتباس عادات ليست عاداتهم، وأخلاق قلما تلائم أخلاقهم، في أرض هي مفتاح باب البحار. وكأنا بلبنان إذا ظل غرام أهله بالرحيل عنه على هذه الصورة طلب الغنى، يوشك أن يفرغ من سكانه، يتعلمون لا ليكونوا فلاحين وصناعًا بل تجارًا ومستخدمين. وقد أولعوا بتقليد الأمم العظيمة الغنية في عامة مناحيهم وهم لا ثروة ثابتة لهم، وفي ذلك ما يخشى عليهم من عواقبه، ومن أظهر شؤمه على مجتمعهم ما نسمع به اليوم بعد الآخر من كثرة الاختلاس والاحتيال في دواوين حكومتهم وبيوت تجارتهم بحيث كادت ترتفع ثقة الغرب منهم؛ ذلك لأن الصعلوك فيهم يحاول أن يعيش عيش أرباب الطبقة الوسطى، هؤلاء لا يقنعهم إلا أن يدانوا الطبقات العليا، وتقليد أوربا أوقعهم في شر أمورهم، وفاتهم أن الأمة لا تفلح إلا باقتباس الجديد، والاحتفاظ بالقديم المفيد، وأن كل شعب يحاول أن يرتجل عاداته، ويصطنع أخلاقه، يندغم في غيره، ويدوب في بوتقة من يريدهم ولا يريدهم.

العادات في الأرجاء الأخرى

تتخالف العادات في القرى وتتقارب، بحسب قربها وبعدها عن الحواضر على الأغلب، وبحسب أصول سكانها، فإذا كانوا من أصول عربية تجلت فيهم عادات البلدية كأهل حوران مثلاً، فإنهم على قربهم من دمشق قد رسخت فيهم العادات البدوية، كأهل الحواضر والوادي من سكان أقصى الجنوب؛

ذلك لأن العرب تسربوا إلى الشام أولاً من الجنوب قبل الإسلام بقرون، وما زالت موجات الهجرة تأتيها من تلك الأصقاع. وبيننا تجد أهل غوطة دمشق كأهل الحضرة في مناحيهم كما يقول الرحالة ابن بطوطة، ترى أهل المرج مرج دمشق، وما هم من الغوطة ببعيد، كأهل حوران، في عاداتهم ولباسهم وطراز معيشتهم، تتمثل فيهم عيش البداوة، وهم فلاحون مقيمون على الحرث والكرث وماشيتهم قليلة. وعادات المسيحيين في حوران وجبل الدروز ومادبا والكرث كعادات المسلمين السنة والدروز، والتعديل القليل على عادات المسيحيين؛ لأنهم أسرع إلى التعليم من الأكثرية وإن كانت الأقليات في الغالب تفنى في الأكثريات. بيد أن الحال كانت على ذلك قبل الانتباه الأخير في الأقلية؛ مثال ذلك أن النساء المسيحيات في نابلس وحماة يحتجبن كالمسلمات مراعاة لعادات الأكثرية.

ولباس أهل بلاد غزة والخليل ونابلس كلباس أهل حوران، كوفية وعقال وعباءة وقفطان، وكذلك أهل بر حماة وحمص والمعرة وما إليها مما هو في سمت الشمال من الأصقاع، وسكان قرى حلب القريبة، سكان قرى دمشق يلبسون العمائم. وهذه لا تلبث أن تزول بالطربوش؛ لأن المتعلمين من أبناء القرى يؤثرون لباس الطربوش على العمامة أو الكوفية. دع أهل المدن فقد قلت العمائم فيها، ولذلك يصح أن يقال: إن القبعة تهزم الطربوش من الساحل، والطربوش يهزم العمامة في الوسط، والعمامة تهزم الكوفية والعقال من سائر أطراف القطر النائية. وهكذا لا ترى وحدة في اللباس في أي ناحية من أنحاء الشام اجتزت بها. وقد يظن الغربي الذي اعتادت عيونه رؤية التوحيد في الملابس، إذا مر بإحدى الحواضر عندنا، أنه في قاعة تمثيل هزلي، تعرض فيها صور من البشر غريبة في حركاتها وألبستها.

جاء في «دواني القطوف» أن عادات الحورانيين في أعراسهم وولاداتهم ومآتمهم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب، مثل دفع الخاطب لوالد عروسه نقدها في القديم عشرة آلاف غرش فخفض إلى ستة آلاف ثم إلى ألفي غرش فقط لعهدنا هذا عند المسيحيين. وعندهم الألفاظ (النقوظ) ورشق العروس عند مرورها في البلد بالعنصل (بصل الفار). وفي المآتم يحملون الطعام إلى بيت الميت، ومدة النوح سبعة أيام كاملة. ومن العار عندهم بكاء الرجال إلى غير ذلك. وأهم ملابس الرجال القمصان الطويلة البيضاء المرسلة الأردان، والغباز من نسيج الديما القطنية أو الحريرية، وسلطة (قنطيشة) واسعة الكمين قصيرة، من الجوخ الأزرق، مطرزة بالحرير الأحمر الناتج، والفقراء يتخذونها من الخام الأزرق بلا طراز. وعلى رؤوسهم الكوفية والعقال، وفي أرجلهم المداس و«الجزمة» (الحذاء)، أما ملابس النساء فقميص أزرق ملون التطريز، واسع الأردان والأكمام، وفوقه «سلطة» أكبر مما يلبسه الرجال إما من الخام أو الجوخ، وعلى رؤوسهن «شنبر» أسود حريري. فالمتزوجات يتلفعن به ويربطنه من وراء، والعزبات يعصبن رؤوسهن فوق المنديل، ويلبسن (البوابيج) والجزمات القصيرة، ويتخذان زنازًا من الفضة (حياصة) قيمته أكثر من ألف غرش، وله ذوائب مسترسلة، وفي معاصمهن أساور فضية ضخمة، وفي أرجلهن خلاخيل فضية، وفي آذانهن تراكي ذهب (حلق مستدير)، وعلى رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبية تعرف بالشكة، وفي أصابعهن خواتم فضية. ويستعملون جميعهم نساء ورجالاً الوشم إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف حالتهم اهـ.

وعادات السكان في القرى تتشابه وكذلك ألبستهم، وكلما بعدوا عما يقال له التمدن تمازجوا وتضامنوا، فما يزال المسلمون في بعض القرى

وادي بردى إذا كان عند جارهم المسيحي فرح أو ترح يأتي المسلمون يخدمون ضيوفه، ويقدمون له الهدايا لبييضوا وجهه أمام الواردين عليه وبالعكس. وهذا من أجمل العادات في التضامن بين أهل البلد الواحد. وعادات المسلمين في الساحل والداخل متشاكلة، وكلها مقتبس من عادات أهل دمشق. فدير الزور وحلب وحماة وحمص والمعرة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وبعلبك وبيروت وصيدا وصور وصفد والنبطية والصلت ونابلس وعكا وحيفا ويافا والقدس والخليل وغزة، وبالجملة فكل بلد فيه كتلة إسلامية أو مسيحية من السكان لا تجد عاداته إلا دمشقية، وأهله يقتبسون من دمشق إلى اليوم ما يروقه من عاداتها، ومدينة دمشق محبوبة تهفو إليها نفوس الشاميين عامة، وأهلها محبوبون للركة التي فطروا عليها، ولأنهم يعطفون كثيرا على الغريب، وربما أغرقوا في عطفهم وآثروه على ابن حيه، وكل من دخلها ولا سيما من سكان القطر متى خرج منها اكتأب ودعا لها بالعمار ولو خسر فيها جزءا من ماله. قال القزويني: «وأهل دمشق أحسن الناس خلقًا وخلقا وزيا وأميلهم إلى اللهو واللعب ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب». ووصف اجتماعهم هذا الذي يدعي اليوم سبتية أي يوم يسبتون وما يجري فيه من المساخر والصراع والغناء والألعاب بما لا يخرج الآن عما كان منذ نحو ألف سنة. والغالب أن السبتية من عادات اليهود سكان البلاد الأصليين كما أن إضراب بعض المشايخ عن القراءة أيام الثلاثاء، من عادات الصابئة لأن يوم البطالة عند الصابئة يوم الثلاثاء. ومع هذا فقد مدح الدمشقيون منذ القديم كثيرا وهجوا كثيرا. ولعل المادح والقادح لا يخلوان من مبالغة.

ومن يتزوج من أهل هذا القطر بامرأة دمشقية يحسب نفسه سعيدا، فالدمشقيات يتغربن كثيرا، وما برحت دمشق تضم إليها الغرباء من أهل

الكور الأخرى وتمثلهم وتعيضها عنم يدخل إليها من الرجال بعض نساءها، يدخل فيها عادات العاصمة الأموية، ويمزجن أهل الوطن الواحد من طريق الأسر والبيوت. والبدو والحضر من جميع النحل يؤثرون البنين على البنات، وكلهم يلدون كثيرًا، ويعيش الأطفال في المدن أكثر من القرى، للعناية بصحتهم ووجود الأطباء والقوابل، ولولا أن البدوي يولد له كل سنة لانقرض نسله لكثرة الغزو والذبح في الدهر السالف.

وجميع نساء القرى من المسلمات في الشام سافرات يعملن مع الرجال في الحقول والمراعي على صيانة لا تبذل فيها، ما خلا بعض القرى القريبة من الحواضر، فإن عادة الحجاب سرت إليهن، فيلبسن ملاءات من حبر أسود أو أزرق على الأغلب. وفي بعض المدن ملاءات ملونة بأصفر وأحمر معًا أو بأبيض فقط. ولكن نساء دمشق خاصة اخترن زيا من الملاءات ومناديل الوجه، اقتبسناها عن نساء الأستانة أيام كان الحجاب شائعًا في نساء الترك. فلما كشف الحجاب في تركيا في العهد الأخير وأصبح زيهن كزي الغربيات، قبعات على الرؤوس وأثواب قصيرة خفيفة. وزال الحجاب أو كاد عند نساء مصر بالطبيعة لتغلب المدنية عليهن، بقي نساء حواضر الشام كبيروت ودمشق وحلب وطرابلس حائرات يطمح بعضهن إلى تقليد التركيات والمصريات؛ ولكن شدة المسيطرين من الرجال، اضطرتهم إلى الوقوف الآن عند حد حجابهن القديم، فيظهرون في الشوارع في خبرات سوداء مسدولة إلى أعقابهن ومناديل سود مسبلة على وجوههن، وقد تكون في المتبرجات شفاقة جميلة لا تكاد تحجب الوجوه بل تزينها وتدعو الناظرين إلى إرسال الطرف إليهن.

ومنذ هاجر الجركس من القافقاس بعد الحرب الروسية التركية سنة (١٢٩٤) إلى الشام وأسكتهم الدولة العثمانية في بعض قرى منبج

وحمص وسلمية ودمشق وعمان وجرش والقنيطرة، أدخلوا إلى الشام بعض عاداتهم في تربية المواشي والفلاحة والصناعات الزراعية. ويغلب على الجراكسة الإمساك والتضامن لأنهم في حاجة إليه لدفع عادية البوادي عنهم، ويغلب التدين على شيوخهم والشجاعة على شبابهم. وإذا أراد الشاب منهم أن يخطب فتاة خطفها من بيت أبيها مهما كانت منزلتها ومنزلة. ونساؤهم يظللن سافرات ما ذمن أبكاراً وعانسات، حتى إذا تزوجن عمدن إلى الحجاب وابتعدن عن مجالس الرجال. والفتيات يختلطن بالفتيان ويغنين ويرقصن مبعاً ويتسامرون ويتحدثون من دون نكير، ويقل فيهم تعدد الزوجات، والمرأة الجركسية مثال المرأة الصالحة في تربية أولادها وإدارة شئون بيتها.

وقد أخذ الصهيونيون في فلسطين يدخلون عاداتهم منذ كثر سوادهم فيها، ولكن من الصعب أن يقتبسها السكان الأصليون لأنهم ينظرون إليهم نظر أعداء، وإن كان في عاداتهم الجميل جداً كحب النظام والترتيب والنظافة والاقتصاد، وتجويد الأعمال الزراعية على اختلاف ضروبها. وكذلك الحال في المهاجرين من الأرمن الذين تسربوا من الشمال وامتدوا إلى الجنوب قليلاً وإلى الغرب، فإن من عاداتهم ما هو المعقول، وهو تضامنهم إلى ما لا حد له، واقتصادهم ومهارتهم في التجارة والصناعة، بيد أنهم لا يمتزجون بالشاميين ويريدون كالصهيونيين أن يعاملوا أهل القطر ليربحوا منهم فقط، لا لتكون بينهم المنافع مشتركة كما هو الحال بين أبناء هذا الوطن الواحد على اختلاف نحلهم، وعلى كثرة ما يوقد الواقدون من الرؤساء المتعصبين من جذوة التعصب، يوشكون أن يقاطعوا غير أبناء جنسهم، ولكن السواد الأعظم إذا عاملهم بالمثل وعمدوا إلى مقاطعتهم لا يبقى أمامهم سوى الرحيل.

وأهل دمشق وحلب بل وأكثر المدن الداخلية من أشد الشاميين محافظة على عاداتهم وأخلاقهم، ولهم غرام إلى اليوم بالتقليب بألفاظ التشريف، واستعمال الألقاب الضخمة، راجت رواجًا كثيرًا على آخر عهد الترك العثمانيين؛ لأن رتبهم وألقابهم مما كانوا أسرفوا في منحه للرفيع والوضيع فصار أهل الطبقتين الوسطى والدنيا لا يتخاطبون إلا بلقب «باشا» أو «بك» أو «أفندي» و«دولتك» و«عطوفتك» «سعادتك» «سماحتك» «فضيلتك» «سيادتك». أما ألقاب سيدنا ومولانا فتكاد تؤلف جزءًا مهمًا من أحاديثهم ابتليت الأمة بهذه الألقاب كما ابتليت بالتقليب بالدين في القرن الخامس إلى القرون الأخيرة. وقد وصف ابن جبير مآثم أهل دمشق وجنائزهم في الدولة الصلاحية فقال: ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانها ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين^(١) فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه

(١) أول من لقب بالدين في الإسلام بهاء الدولة بن بويه ركن الدين، وذلك في القرن الرابع للهجرة، وسرى هذا التقليب إلى العلماء ثم سمت نفوس العامة إلى التلقب بالدين فأصبحت بعد القرن الخامس لا تسمع إلا ألقابًا هائلة مضافة إلى الدين تساوي الناس في التمجيد بها ولم تخل من التحلي بهذه الحلية سوى الأندلس؛ لأن دولهم بقيت عربية الروح والجسم حتى في الأيام التي كان الحكم فيها للبربر. وقد حمل بعض العلماء قديمًا على هذه الألقاب المبتدعة لمخالفتها للشرع ولما فيها من تزكية النفس المنهي عنها. قال القلقشندي: وبقي الأمر على التقليب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر بالله فافتح التقليب بالإضافة إلى الدين، وكان أول من لقب بالإضافة إليه أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه زيد على لقبه بهاء الدولة «نظام الدين» فكان يقال: «بهاء الدولة ونظام الدين».

قال ابن حاجب النعمان: ثم تزايد التقليب به وأفرط حتى دخل فيه الكتاب والجند والأعراب والأكراد وسائر من طلب وأراد وكره حتى صار لقبًا على الأصل. ولا شك

أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيه إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعية، وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضًا من سيد العلماء وجمال الأئمة وحنة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين، إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحبًا أذياله من الكبر ثانياً عطفه وقذاله قال: ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامثال الخدمة وتعظيم الحضرة، وإذا

أنه في زماننا قد خرج عن الحد حتى تعاطاه أهل الأسواق ومن في معناهم ولم تصر به ميزة لكبير على صغير حتى قال قائلهم:

طلع الدين مستغيثاً إلى الد
يسمون بي وحقق لا أع
وقال العباد قد ظلموني
رف منهم شخصاً ولا يعرفوني

وقال أبو الريحان البيروني: وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة، وسوا فيها بين الموالي والمعادي، ونسبوه إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم، فإنهم أفرطوا في ذلك حتى احتج للقائم بحضرتهم إلى فرق بينه وبين غيرهم فثنا له التلقب ورغب في مثل ذلك غيرهم، وكان الراغب ينجح حاجته بالبدل، وتزاح علته بالأداء، فاحتج ثانياً إلى الفرق بين هؤلاء وبين المختص بحضرتهم، فثلثوا له التلقب وألحقوا به الشاهانشاهية. وبلغ الأمر غايته من التكليف والتثقل، حتى ان الذاكر يمل ذكرهم قبل أن يبتدئ به، والكاتب يفني زماناً وأسطراً، والخاطب لهم على خطر من فوت وقت الصلاة. قال: وكذلك وزراء الخلافة قد لقبوا بالأذواء كذي اليمينين وذي الرئاستين وذي الكفائتين وذي السيفين وذي القلمين وأمثال ذلك. وتشبه بهم آل بويه لما كان الدولة متقلة إليهم، وبالغوا فيه واستغرقهم الكذب فسموا وزراءهم بكافي الكفاة، والكافي الأوحده وأوحده الكفاة. ولم ترغب السامانية ولاة خراسان في هذه الألقاب بل اكتفوا بالتكنية، وكانوا يذكرون في حياتهم بالملك المؤيد والموفق والمنصور والمعظم والمنتصر، وبعد فاتهم بالحميد والشهيد والسعيد والسديد والرضي وأمثال ذلك، ولكنهم لقبوا قواد جيوشهم بتناصر الدولة وعمادها وحسامها وعميدها وسيفها وسنائها ومعينها ونصيرها اقتداء بأفعال الخلفاء. وكذلك فعل بغراجان من تلقب نفسه بشهاب الدولة، وجاوز نفر منهم هذا الحد فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء، فأذاهم الله الخزي في الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم اه.

لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عنقاء مغرب. وصفه سلامهم إيماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هويًا. وهذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء. وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجبًا لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتدلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه، لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل، فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فيما إذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الأذنان عندهم والرءوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرءوس اهـ.

بمثل هذا اللسان الغريب وصفنا ابن جبير. ولما أفرط القوم في عاداتهم في الجنائز والمآتم والأفراح والمجتمعات والقيام والقعود وتبادل السلام وتقديم القهوة والشاي وغيرهما، ودخلت في طور من الهزل عجيب، زهد فيها المتعلمون على المناحي الغربية، وأنشأوا ينبذونها نبذ النواة. وخفت أيضًا ألفاظ التكريم عن عهد الترك وهي آخذة بالزوال، ويقدر ما يكثر سواد المتعلمين يقل سواد المداهنيين والمرائين، على ما يقل المخرفون والمعتقدون.. فقد كان بعض الناس يعتقدون بالقال والمندل والكيمياء والأحلام والكشف، فقلَّ اليوم من يلتفتون إلى هذه المسائل، وخفت وطأتها حتى من القرى البعيدة. والمنورون من الناس قسمان: قسم وقف عند حدود الشرع واكتفى بأوامره ونواهيته، وآخر نزع ربة الدين ولكن في سره دون الجهر من القول.

وبعض العادات لا تقوى على نزعها إلا الأيام الطويلة والنشوء السريع، وهذا متعذر الآن لتعذر نشر التعليم الإجباري في الشعب، فقد كان النساء إلى عهد قريب في الأحياء البعيدة عن مدينة حلب يخرجن في الجنائز مسخمت وجوههن مخمشات لها لابسات ثياب الحداد، باكيات مولولات منتحبات، وهذا من عادات الجاهلية التي منعها الإسلام. وأول المسؤولين عن إقرار مثل هذه العادات المشايخ والوعاظ وأرباب الصحف. وقل أن رأينا من المشايخ والوعاظ من يتعرض لإنكار مثل هذه البدع والعادات الضارة. أما الصحف فعلى كثرة ما نشرت من الأنوار في طبقات مخصوصة من الناس فقد بقيت في ناحية من النواحي مقصورة كل التقصير، وهو البحث في العادات المضرّة والأخلاق الساقطة. وإنا ليحزننا أن كان في الصحافيين أناس لا يزيدون المجتمع إلا فسادًا فوق فساد؛ لأنهم يلقنون العامة الكذب والخديعة والملق، ويدعون أن قراءهم لا يرضون منهم إلا بهذه الطرق؛ ولكننا على يقين من أنهم هم يبيعون من قرائهم ما يتفق مع مصلحة جيوبهم وأكياسهم. كان التدجيل إلى عهد قريب من خصائص بعض مشايخ الطرق فذهبت الآن ريحهم أو كادت وخلفهم هذا الضرب من الناس.

يمكن إرجاع أهم صفات الناس في هذا القطر إلى مادتين أصليتين «الوفاء والكرم» ولا تزال هاتان الصفتان ماثلتين في معظم الشاميين على كثرة ما اعتور مجتمعهم من تبديل وتعديل. وتجد هاتين المزييتين على أتمهما في كثير من أهل الطبقات الوسطى والدنيا، يقومون عليهما غالبًا من دون أن يتوقعوا عنهما أجزًا سماويًا أو مظهرًا دنيويًا. أما الطبقة العليا فمن النادر أن يكون فيها الوفاء والكرم، وإن وفّت فلأمر ما تفي، أو تكارمت فلغرض ترتجيه. وكلما ضيغف الوازع الديني في القوم، وهاجمتهم عادات الغربيين، انحلوا من عهدة الوفاء والكرم، ولذلك ترى

الأوفياء والكرماء بعيدين إلا قليلاً عن المناطق التي اختلطت بالغريب على سواحل البحر، وأخذت من معارفه، وتخلقت بأخلاقه، واعتادت عاداته.

ومنذ شاع الكذب والحسد في الشاميين، ضعفت مادة حياتهم من التجارة والصناعة، وكادت ثقة الغرب ترتفع منهم، وإذا كتب لهم أن عاشوا في الجملة اليوم فبفضل الأسس القديمة التي قام عليها مجتمعهم وجامعتهم، وبفضل نشاطهم في مهاجرهم حيث رأوا أنفسهم أمام جاليات كثيرة من الأمم اضطرتهم الحال معها أن يظهروا بمظهر الأمانة ليعتاشوا ويرتاشوا. أما التحاسد والمشغبة فلم تنقطع شأفتها فيهم حتى في ديار الغربية، وربما زادهم على ما كانوا ألفوه منها ما رآوه في مهاجرهم عند الأمم الأخرى فاقتبسوه وأضافوه إلى رءوس أموالهم. وربما بلغت الجالية الشامية نحو ألف ألف نسمة أي: نحو سبع سكان القطر، فما أمرهم باليسير إذا حتى لا يشار إليهم بجملة؛ لأنهم على الأقل يمثلون صورة من أهل القطر في الخارج، والأجانب لا يعرفون إلا أنها صحيحة مطابقة للأصل، أو أنهم من أمثل طبقات الشعب. ولو تفرقوا في الأرجاء التي ينزلونها، كما تفرقت قلوبهم في موطنهم الأصلي، لكان لزمًا أن يؤثر ذلك في أخلاقهم وعاداتهم، ولكنك تراهم في مهاجرهم يجتمعون أهل كل إقليم بإقليمه على الأكثر، وقد لا تختلط لفائفهم بسكان الديار التي ينزلونها إلا كما يختلط الشامي بالمصري إذا نزل مصر، يختلط به ليبرح منه ويحتفظ بشاميته وتقاليده بعد جيلين وثلاثة وأحيانًا بعد أربعة وخمسة.

عادات القبائل وأخلاقها

ثمن أو سبع أهل القطر الشامي اليوم؛ أي نحو خمسمائة ألف نسمة بادية أو قبائل رحالة، ويقال لهم في الاصطلاح: العرب أو العربان، تصطاف في مكان وتشتو في آخر، وقل من يالف منهم سكنى الدور، وبيوتهم من الخيام والمضارب تنسج من شعر المعزى، يعتمدونها بعمد ويشدونها بأطناب، ويضربونها حيث نزلوا لرعية ماشيتهم، يحملون معهم أثاثهم وخرثيهم ودوابهم ومثونتهم، وهم شاوية يقومون على تربية الشياه والعنز ويربي بعضهم الأباعر، والشاوية من الأسماء التي تطلق على عشائر دير الزور على الفرات خاصة لأنهم جماعة شياه. ومعاش البدو من مواشيهم وما تدر عليهم من السمون والألبان والأجبان والزبد وما يبيعون من نتاج قطعانهم، أو من غزو بعضهم بعضًا إن كانوا أشرازا على الفطرة لم تتدمت أخلاقهم قليلاً بالاحتكاك بالمتحضرين، وإذا كان سكان البادية على هذه الحالة من التنقل وأكثرهم يوغل في الشتاء إلى وسط ديار العرب انتجاعًا للكأ والماء، أصبح من المتعذر أن تنشأ لهم حالة ثابتة يتأتى معها وصف كل قبيل منهم في عاداته وأخلاقه.

وعرب الشام من أصول شتى وقد تتغير أسماء قبائلهم مهما عظمت في كل قرن أو قرنين، فقد تغيرت أسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الإسلام الشام، في القرن الثالث أو الرابع، وما عرف من أسمائها في القرن الثامن أو التاسع تبدل في القرن الحادي عشر، وهكذا تبدل أسماء العائلة تبعًا للمتأمر عليها، وقد تسمى القبيلة كلها باسم أميرها أو شيخها. والعشائر كلها تنقسم إلى أفخاذ وبطون، والإمارة أو المشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم من بيته، أو من كان أذكى قومه

جنائنا، وأبسطهم بالكرم يدًا، وأشجعهم يوم النزال قلبًا، وأصلبهم في الحوادث عودًا، ثم تنتقل بالوراثة.

وغزو القبائل بعضها بعضًا يحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامته فيهم، فقد

تكون القبيلة اليوم في الغاية من طيب العيش، ناعمة البال بحلالها أي ماشيتها، فتغزى من الغد في عقر دارها، فلا تلبث أن تصبح أعرى من مغزل لا سبد لها ولا لبد. دع ما يصيبها من نقص في الأنفس، فقد كان من النادر أن تجد رجلًا بلغ أقصى سن الشيخوخة لأنه يُعْتَبَط في الغزوات، ويقتل في سن الفتوة غالبًا. والحكومات الشامية اليوم تحظر على القبائل الغزو، وهم يخافون سطوتها لمكان السيارات ورشاشاتها في الأرض، والطائرات وقذائفها في الجو، وتحاول كل حكومة أن تعطي البادية أرضًا تزرعها لتأوي إلى البيوت الثابتة، وتتخلى عن عيش البداوة وما تستلزمه من شقاوة وشقاء. ومن عشائر الشام ما عرف أنها كانت رحالة فأصبحت مزارعة مقيمة، ولذَّ لها عيشها الثاني فاغتنت يوم تحضرت، مثل الدنادشة أو بني دندش فهم قبيلة يمانية جلت إلى حوران منذ نحو ثلاثمائة سنة، ثم انتقلت إلى أرجاء تل كلخ من عمل حصن الأكراد، ولهم اليوم قرى عامرة وبيوت وقصور في قرى الفتايا والحوز ومدان وحير البصل والموح ومشتى حمودة ومشتى حمزة وبرج الدنادشة وغيرها، وظلت أخلاقهم إلى عهد قريب أخلاق العشائر يحبون الغزو والسطو وحمون الدِّمار والجار، وهم على حصة موفورة من الكرم والوفاء وصحة العهد. واتفق مثل هذا التحول لكثير من عشائر الحديديين والموالي وبني خالد، فإنهم لما امتلك السلطان عبد الحميد الثاني أرضًا واسعة في الشمال الشرقي من الشام في أرجاء حماة وحمص، حمى العشائر ومنع الغزو بينها، فتحضر من هذه العشائر عدد كبير انصرفوا إلى

اعتماد الأرض والعناية بالزرع والضرع. وهكذا كانت الحال في القديم والحديث، تدخل البادية في الحضارة، وقل أن خرج أفراد من الحضارة إلى البداوة؛ لأن الترقى سنة الطبيعة، والبداوة أصل ثم يذوب أهلها على الزمن في الحضرة.

تبعد منازل البدو عن سواحل البحر المتوسط غالبًا، ولا تزال تمتد في الداخل حتى ينتهي العامر من ديار الشام في الجنوب والشرق، وهناك البداوة بأجلى مظاهرها. والأولى أن يقال مثلًا في عشائر الفضل والهوادجة والبحاترة النازلين على ضفاف بحيرة الحلولة، وبني صخر الضاريين في البلقاء، وبني حسن في علجون، والحسينية والفواعرة والعكيدات في أرجاء حمص، وبني خالد عرب حماة، والحديديين والموالي واللهيب والغيار عرب حلب، والسبعة والقدعان من عترة النازلين من بحيرة الجبول إلى سليمة وعشائر البشاتورة والبواتية الغزاوية والمساعيد ونقار والصقور عرب بيسان ونابلس وجنين وطول كرم، وعشائر شرقي الأردن التي تشتت في وادي العربة أو الأغوار، أو الحماد أي الصحراء العربية شرقًا، وتصطاف في أرض معينة الحدود معروفة - فالأولى أن يطلق على هذه القبائل اسم نصف حضرية؛ لأن منها من يزرع الأرض، ومن أفلح في الفلاحة، وأيقن على الأيام أن العيش الثابت خير من المتقلقل، وأن من يدفع للدولة أجرة حمايته، أهنأ بالأمن يتكل في حمايته على نفسه وسيفه وعصيته.

وهكذا يقال في عرب الغياث والعمور في اللجا والصفاء، وعرب العدوان والأيديات والعباد والمشالخة والحمايدة والشوابكة والدعجة والعجارمة والنمر والكايد في أطراف عمّان والصلت ومادبا، والخرشان والجبور في الموقر والعليا والنقيرة، وبني حميدة والسليط والحجايا والحباشنة والصرابرة والطراونه وكثربة والمعايطة والمجالبي والمدنات

في أرجاء الكرك، والحويطات والدمانية وأبي تايه والمطالقة والنعيمات والديابات وبنى عطية في جهات معان، وعرب الشورور وبنى عطا والهلالات والعبودية والعلايا في وادي موسى وجبال الشراة، والحميدات وعبدين والبحارات والكلالدة والوهيبات والمناعين في الطفيلة، فإن كثيراً منهم يزرعون الأرض، ويقومون على تعهد الماشية، وقد يبعدون في الانتجاع ثم يعودون أدراجهم.

وعلى مثل هذه الحال عشيرة العمور في أرجاء تدمر وعشائر بوشعبان في السخنة والجبور في البوكمال والعكيدات في الميادين ودير الزور وغيرهم من العشائر النازلة على شط الفرات الغربي، فإنها كلها نصف متحضرة وبقليل من العناية تدخل في المدنية وتترك عاداتها وشقائها، ويسوغ لنا أن نستنتج أن البادية حتى أكثرها إيغالا في البداوة يمكن تحضيرها إذا أكرهت على التحضر خلافاً لما يذهب إليه بعض أهل الغرب. وفي الشام قبائل من البدو مثل عرب الروالة من عنزة وهم لا يقلون عن عشرين ألف نسمة، ينتقلون أبداً كالنور أو العجر كل مدة في ناحية، ولا ينزلون المدن إلا لابتياح حاجاتهم وبيع جمالهم وأصوافهم وألبانهم. والنور جيل منحط من الناس يرتحلون كالبدو ويعملون الأعمال الخسيسة، ولذلك يحتقرهم جميع أصناف العالم من أهل المدن والقرى والبدو، وهم قلما تخلو منهم بلد ومنهم عدد كبير في أوروبا.

ولا تختلف عادات العشائر لأنها كلها في حالة أولية فطرية هدتهم إليها الحاجة إلى الحياة، فعشائر ولد علي والسرحان والمعجل والسردية والنعيم في حوران والقنيطرة والزوية، والزريقات في طرابلس والتيهاة والعزازمة والترابين والجبارات والحناجرة والكعابنة والصرايعه والجهالين وفقرة وثباني وهارين وفرحات وزويديين وضواحك وسلامات وصقيرير والرسيلات وأبي صونية والغوالة في أقصى فلسطين؛ أي في أرجاء بئر

السبع وغزة والخليل والمجدل، وعشائر القدس ورام الله وبيت لحم وأريحا ويافا والرملة كالسويطرة وعرب النبي رابين والجماسين وأبي كشكو والسوالمة والعوجا والديوك والنويعة والخطباء والفهيرات والعرينات والنصيرات والتعامرة والعبيدية والسواخرة وعرب حيفا وعكا وزمارين والناصره وطبرية وصفد وهم الغابة والعواضين والشقارات والزبيدات والتواتحة والكمابية والضبية وبنى عزة والنغناغية والرمل وعرب التركمان وجسر الزرقاء وقسارية والفقرة ونفيعات والدمائرة والسواعيد والسمنية والغوارنة والسويطات والحجيرات والطوقية والمريسات وصبيح الحجيرات والمزاريب والسبارجة والجواميس والغزالين والتلاوية والمواسي والسرجونة والسدور والسمايرة والخرامية والسماكية والمنارة وكراد الخيط والملاحة والشمالنة والبوزية والزنجرية وزبيد وقديرية وطوبا وحسنية وعلمانية ووقاس والصويلات والنميرات، وعشرات من القبائل كلها متشابهة في عاداتها وأحوالها الطبيعية وجلها لا تسد مطامعه إلا الغارات واستباحة حمى المعمور، عرفوا بذلك منذ عرف تاريخهم. وكان الرومان خاصة يقيمون المخافر خوفاً من اجتياحهم القرى ويقيمون لهم منهم زعماء يصدونهم عن الاعتداء بعضهم على بعض، أو يحولون دون اعتدائهم على المقيمين من سكان المزارع والداكر.

وفي تاريخ فلسطين أن العزة والسيطرة كانت في جميع بلاد الساحل والسهل للبدو وأهل الدير، فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العزارمة والحناجرة والترايين والتيها والجبارات، فالعزارمة يمانيون ومشايخهم أجداد ابن سعيد، وأمراء الترايين عائلة أبي ست، وأمراء التياها الهزئيل، وأنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيج من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليماني، وبلاد الخليل أكثرها قيسية ومقاطعة القدس يمانية وقيسية اهـ.

وكما عرف البدوي بأنه يجير الملتجئ إليه، كذلك إذا آنس ضعفاً من أحد أبناء السبيل في البرية سرق منه ماله وثيابه أو هيمانيه ودابته، وندر أن يقتله فشأنه شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها. ولطالما كان الجنود الشاميون أيام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن تطيل البادية عليهم أيدي الاعتداء تارة ويكسونهم ويطعمونهم تارة أخرى، وهكذا كان الفار يعرى ويكتسي مراراً حتى يصل إلى المعمور من دياره.

وماذا يعمل البدوي وماشيته ترعى أمامه، وكيف يصرف ليله ونهاره، وكيف تطيب له الحياة في الصيف والشتاء، وهو معرض لأشد الحرارة وأشد البرودة، وخائف على الدوام يترقب غزوة خصمه وقبيله الذي يعاديه؟ لا جرم أن البدوي، وهو بذكائه وفراسته معروف موصوف أكثر من الفلاحين أهل القرى، يعرف من الأخبار التي تهمة من أبناء العالم ما ينبغي له الإحاطة به، ويتناقله بسرعة البرق، حتى إن ما يحدث في الحجاز أو العراق، يصل خبره إلى ابن بادية الشام وما وراءه من العرب، قبل أن تصل السيارة والبريد، فيتقل الخبر في الأفواه من فم إلى فم، ويسمون الأخبار «العلوم» وأول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم. وإذا لم يمن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والأخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً يأخذ شاعر القبيلة ربابه يضرب عليها، ويفكهم من نظمه أو من محفوظه بأشعار. وفي الغالب أن يكون ما ينشدهم إياه بلهجتهم التي يألفونها. ويحتوي على الأكثر الحماسيات وأخبار الغزاة والغزوات وأيام الشجعان وحوادث الكرماء والضيفان. والرقص معروف عندهم وهو الدبكة أو السحجة يرقص في الغالب الفتيان والفتيات، دون الرجال والنساء المتزوجات. ومهور النساء غالية في بعض العشائر، وتكون من الجمال والشيء غالباً لا من النقود لقلة تداول النقد بينهم فهم يتقايضون الحاصلات، كما يتقايضون البنات

بالحيوانات. والبدوي يُخصب إن جادت المراعي من خيرات السماء، وإلا فقد أترب وأجذب، ونفقت دوابه فأعوزته اللقيمات.

ويجلس الرجال في العراء في خيمة مضروبة تكون في الغالب خيمة الشيخ أو الغني، يتعاطون قهوة البن وهم يجيدون طبخها لفراغهم وتوفرهم على معالجتها. وقد يستغني البدوي عن الأكل أو يقلل منه كثيراً، ولكنه لا يستغني بحال عن تعاطي في كل ساعة فهي نقله وحلواؤه وشرابه المتنعش، وقد يصرف أحدهم ثمن بن في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه. وأحب الهدايا إلى قلب البدوي أن تحمل إليه مقداراً من البن. وطعامهم من أسهل الأشياء، مقصور على بعض الألبان والبر والجريش والأقط والعصيدة، ولباسهم ساذج للغاية وكسوتهم متشابهة: قفطان من القطن، وعباءة خفيفة، وزنار عادي، وكوفية وعقال، ولا يلبسون في الأعم من حالاتهم قمصاناً وصدراً وسراويل، وأكثرهم حفاة، ويصطنع كسكان وادي موسى نعالاً من جلود الأباعر ينيطونها بحبال يدخلون فيها أباهم أرجلهم تعلق بها.

قل أن تجد في البادية من يقرأ ويكتب، فقد تبلغ العشيرة ألف نسمة ولا تظفر فيها بمن يكتب جملة. ومن العشائر من تستأجر خطيباً من أهل الحضر يكون معها في مشتاتها ومصيفها، يقرئ بعض أبناء العشيرة القرآن، وينظر في الأنكحة والطلاق ويعظم بما يعلم من أمور الدين. وأكثر البادية لا يتطهرون ولا يصلون ولا يصومون ولا يعرفون من الإسلام إلا أن الله واحد وأن محمداً رسوله. ولولا هاتان الكلمتان لقلنا إنهم كعرب الجاهلية حذو القذة بالقذة وقد تصلي بعض القبائل كالروالة، ولما كان الماء يعوزهم في منتجعاتهم وتنقلاتهم فهم يقيمون صعيداً طيباً، والله يعلم هل يحسن أكثرهم قراءة فاتحة الكتاب، أو يعرفون سورة الصغار. وما كانت هذه العشيرة تصلي من قبل لولا أن لابسها بعض دعاة الشيعة

وعلموا كل فريق منهم إقامة الصلوات، ولقنوهم بعض معتقدات التشيع من حيث لا يدرون. وقد تدين اليوم أي دان بالمذهب الوهابي قسم من الروالة لما لحقوا بنجد، والمذهب الوهابي مذهب محمد بن عبد الوهاب وهو مذهب أحمد بن حنبل بأصوله وفروعه.

وإذا كان من الأمور العادية في البادية أن تكون القبائل في خصام دائم، وهي أشبه بحكومات صغرى تتقاتل وتستعين بالغريب على خصمها، مست الحاجة إلى قضاة يفصلون بينها في المنازعات، وقضاتهم منهم يتقاضون عندهم بأجر معلوم، وأحكامهم سريعة نافذة، ومن أحكامهم ما هو مطابق للشرع الإسلامي، ومنها ما هو من بنات أفكار القاضي، أو يأخذه من العرف والعادة. والاختلافات تفض بين المتخاصمين على أيدي الرؤساء صلحًا على الأكثر. وقُلْ أن يراجع البدوي الحكومة في مسأله لأن من أصولها البحث والتحقيق، وهو يحب قضاء عاجلاً، وأن يحكم له أو عليه في جلسة واحدة، وينفي القاتل في بعض القبائل سبع سنين فإذا صالح أهل القتل ودفعت الدية يعود إلى عشيرته، وتختلف دية القتل بين (٣٣) ألف غرش إلى (١٥) ألفاً، ولا يحق عند بعضهم لأحد بعد سبع سنين أن يثار للقتيل، والأخذ بالثأر كثير عندهم، ولا مدة عند معظمهم للمطالبة بالثأر. ومن المآثر عنهم أن البدوي أخذ ثأره بعد أربعين ستة وقال: إنني تعجلت أخذه. وجزاء السارق تغريمه المال المسروق من ضعفين إلى أربعة أضعاف، وينجو السارق بالفرار، ويدفع الضارب للمضروب إذا عطل منه عضوًا نصف الدية، والزاني يرجم عندهم حتى يموت ولكنهم تساهلوا في هذا الحكم، والفحش عندهم على نسبة ما هو عند الحضرة ويكثر في بعض العشائر ويقبل بحسب اختلاطها بأهل المدن وبعدها عنها، والخمور لا أثر لها في البادية لأن العرب قلما يشبعون الخبز والإدام فمالهم إذا والمُدام،

ولشظف العيش عندهم يعدون في الأعياد اليوم الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة، فإنهم في تلك الوجبة مدعوون كلهم بالطبيعة، وعندما يأكلون اللحم فترى قطعانه تسافر من فوق الرؤوس حتى يُطعم من «المنسف» البعيد منهم عنه، وتسمع عندها تعريق اللحم عن العظم أشبه بأصوات حيوانات وقعت على عظام.

ويكثر تعدد الزوجات بينهم خصوصًا عند من يملك بعض نعجات أو بضعة أباغر فتراه طول النهار وجزءًا من الليل، تحت خيمته يتقهوى أي يشرب القهوة مستلقياً على قفاه، يقص أفاصيصة وينعم ببطالته، على حين ترعى امرأته وبناته الغنم والجمال، ويحتظبن الحطب أو يجمعن العشب، وتحمل المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد، أو تستقيه في قرب تحملها على حمار إن كان صاحبها من أهل اليسار، وتستخرج المرأة الزبد والسمن وتعمل الجبن وتخبز الخبز وتهيي الطعام، ويعيش أولادهم كالسائمة في البرية بدون عناية ويهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر، ولهذا تكون أجسام من يفلتون منهم من الموت قوية تبعًا لقاعدة بقاء الأنسب. وهم لا طيب عندهم ولا جراح ولا قابلة إلا ما تعلموه من أجدادهم من الصفات، وثقفوه بطول الزمن في مداواة الجروح، ويداؤون أكثر الأمراض المستعصية بالكي أو بأدهان وحشائش لهم يعرفونها. وأمراضهم قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم وقلة تطهرهم، وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة من أجسامهم ولندرة ما يطعمون من الأطعمة المركبة من حامض وحلو وحر وبارد، ولقلة الهموم التي تساورهم وما تساور في العادة إلا سكان المدن والقرى ممن يفقهون واجبات الحياة، ويكدحون في طلب المعاش ولا يزالون مأخوذين بحب التقليد. والبدوي حاد النظر يرى الأشباح من مسافة بعيدة جدًا، وقد يرى والقمر ليلة هلاله ما لا يبصره الحضري، ومن رآه في

تمييز المراثيات عن بعد باعد، يكاد يصدق ما ذكرته العرب عن نظر زرقاء اليمامة. وكما كانت أبصارهم حادة كانت أسنانهم وأضراسهم سليمة براءة للطف أخلاطهم وتخليطهم.

قال أديب وهبة: «إن سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالأخطار والمشاق، وبعده عن الحامية وانتبازه الأسوار، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري، منها الشجاعة والعصية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة فتوغل البدو في البادية، وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال أو استعداد دائم للقتال، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعًا بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء إلى العصية، وهي التضامن المطلق بين أفراد القبيلة، حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أحد أفرادها، وأقرب أسبابها لديهم الأخوة والأبوة والعمومة، ومنها تتألف الأسرة، ومن الأسر تتألف الفصيلة وتندرج بهذه الصورة إلى القبيلة. والذي عليه عشائر الشرق العربي أنها تطلب وتطالب بحقوق أفرادها إلى الجد الخامس من جدود الطالب والمطلوب؛ أي لكل فرد يتصل مع أيهما بالجد الأول أو الثاني أو الثالث إلى الخامس الحق بطلب حق قريبه، وعليه أن يخضع للحق المطلوب منه، ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثه. ثم إن ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الأرض المقفرة يضطرهم إلى إكرام الضيف والقاصد وحماية الضعيف والملتجئ، حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه. وقد قويت هذه المزية فيهم حتى ضرب بكرمهم المثل، وفاقوا به سائر الأمم. وإن مطاوي التاريخ العربي مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب. والبدوي يعتقد أنه لا ذكر له ولا إرث أفضل من سمعة الكرم والجود. وإن هذه المزية لا تزال عند بدو الشرق العربي على ما كانت عليه في

زمن أجدادهم الجاهلين، فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنيًا كان أو معدمًا، إلا ويسرع لتهيئة كل ما يرضيه ويسره، وإن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم. وإذا استأنهم مستأمن على أمانة فدوا لحفظها أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وكذلك إذا التجأ إليهم خائف، أو استجار بهم مظلوم، أو نزل عليهم موتور مطرود».

رأي في الأخلاق الشامية

تمثل الأمم في العادة طبقتان من أبنائها «الوسطى والعليا». والطبقة الدنيا وهي طبقة العامة مستتبعة لا متبوعة؛ لأن ما هي فيه من تأخر أسباب الحياة، لا يترك لها مجالاً للتفكير في شيء، غير ما يقع تحت حسها مباشرة، وتشتد حاجتها الطبيعية إليه. وقد تقلد الطبقة السفلى الطبقة الوسطى تقليدًا خفيًا لا يكاد يشعر به، وتقليد الطبقة الوسطى الطبقة العليا أشد ظهورًا من تقليد الدنيا للوسطى. وتتجلى في الطبقة العليا مظاهر السعة في العيش، والبسطة في العلم أو الحضارة، وهي أبدًا حريصة على مكانتها، تحاذر سقوط شأنها من أنظار الطبقتين التاليتين، وتعد السؤود كل السؤود، ما هي فيه من جاه ومال ومجد وعلم.

يُعد من الطبقة العليا العلماء والعظماء والقواد وأرباب الأموال، ممن يسرون الجماعات إلى حياتها أو موتها، وينفثون في روعها ما يرفع مستواها العقلي، ويظهرون نفوسها من الآثام والآلام، وبأيديهم زبدة ثروة الأمة وجهودها، وإليهم منتهى ما بلغته قرائح أبنائها يمثلون التسلسل في الفكر، وتتجسم فيهم الإرادة الثابتة والعزيمة الصحيحة، وهم صورة البيوت الخالدة ومنعكس التأثيرات الطريفة والتالدة، ومثال الشعب ورقية ووجهه الوضاح الجميل، وفي قبضتهم مفاتيح المفاجر ومغاليق المآثر وهم المذكورون وهم المشهورون، ومصير غيرهم إلى الخمول والعفاء.

من أجل هذا كان على تلك الطبقة أن تتحلى بحلي الفضيلة والشرف، وأن تكون عفيفة الطعمة حسنة الأحدث، بعيدة عن الموبقات والبذخ والسرف، حريصة على النهوض بالأمة تشارك في المسائل المدنية عن عقيدة راسخة وتأخذ بأيدي العاثرين واللبائسين، وتلقن أبناء أمتها علمًا ينتج الثروة ويحفظ المجد، ويولي الكرامة. وإذا جُنت بالظهور من دون استعداد له وحاولت الاحتفاظ بمكانتها دون أن تتذرع بأسباب البقاء، ويتجدد مواد حياتها الحين بعد الآخر، فإن عزها لا يلبث أن يزول، وسعادتها توشك أن تضمحل، ومن العيب أن تعيش هذه الطبقة بشهرة أجدادها من الحكام وأهل الشرف وأرباب المظاهر، وأن تعتقد أن جماع المفاسد وقف على أحسابها وأنسابها، وتطلب من كل إنسان أن يرفع مقامها؛ لأن من أجدادها من كان على شيء من الفهم أو الظهور، أو أنه كان يسفك الدماء ويستحيل أكل أموال الناس حتى أثرى وخلف عقارًا وقرى وصامتا وناطقًا. ورب صعلوك في نظر المتمجدين كبير في عيون الخلق. والكبير من كبرت أخلاقه، ونفع الناس وانتفع بهم.

وإذا جئنا نحاسب مثلًا بعض من انتسبوا إلى الدين، وهم أشرف الفئات في العرف نراهم أقرب الناس إلى امتهانه بأعمالهم، يأتون ما لا ينطبق على جلال منزلهم. فقد فشت المطاعم فيهم واستحلوا الأموال مهما كان لونها وطعمها ورائحتها، وأتوا للاحتفاظ بمظاهرهم القديمة من الأعمال ما بدت به مقاتلهم، ففضوا بفساد ذمهم على أوضاع الأمة، وركبوا مراكب الهوى واستمروا لأنفسهم أكل ما اعتقدوه حلالًا طيبًا فأضاعت الأمة شخصياتها ومقوماتها، وأصبحت مزيجًا غريبًا لا تعرف كيف تكيفه. وليس في المجتمع من يناقشهم الحساب، وكيف يناقشون وهم المرجع وهم الهادون. وكان المشار إليهم بالبنان من أهل هذه الطبقة في الدهر الغابر، يدلون بشممهم على الخلفاء والسلاطين، ويسيطرون

بإخلاصهم على القضاء والحاكمين، ومن هانت عليه عزة نفسه يوشك أن يستهين بكل محمّدة. ولقد أدركنا أحد كبار الشيوخ العلم، لما شاهد هذا التسفل في طبقة العلماء يشير على طلاب العلم الديني أن يتقن كل واحد منهم صناعة حتى لا يسف لأحد يستجدي نواله، ولا يمسي عائلة على أبواب الحكومات وأرباب السلطات، إن احتاج إلى صناعته احترف بها، وإلا كان لمناصب الدين والدنيا مخطوبًا لا خاطبًا.

ولي سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك سنة (١٦٧هـ) وكان محتاجًا، فلقبه داود بن أبي شيان الدمشقي فقال له: يا أبا محمد وليت القضاء بعلم العلم والحديث. قال: نشدتك الله أتحت جبتك شعار؟ فقال داود: نعم. فرجع سويد جبته وقال: لكن جبتي ليس تحتها شعار. وقال: أنشدك الله هل هذا الطيلسان لك؟ قال داود: نعم. قال سويد: فوالله ما هذا الطيلسان الذي ترى عليّ لي، وإنه لعارية، أفلا ألي القضاء بعد هذا، فوالله لو ولوني بيت المال فإنه شر من القضاء لوليته اه. هذا قول عالم في زمن كان صاحب السلطان يطلب الأكفيا إلى القضاء فيفرون منه فرار السليم من الأجر. ومنهم من ضرب لأنه لم يقبل أن يلي القضاء، وكان محتّمًا عليه قبوله لانتهاء الرياسة في العلم والعمل إليه. كان هذا في ذاك العصر الذهبي فما بالك بالعصر الأخير، والجهال يتطلبون مناصب الدين إلا في الندر، ويقدمون لتوليتها الرُشى والهدايا وقلّ فيهم النزيه الذي يستحق أن يطلق عليه اسم العالم، أفلا تسقط بجدك هية هذه الطبقة من النفوس بعد هذا؟

وبينا تجد بعض القائمين على الدين من أهل السواد الأعظم لا يهتمون لغير إملاء جيوبهم وبطونهم، تشاهد بعض رجال الدين من أبناء الطوائف الصغيرة يجمعون شمل من التفوا حولهم، يقودونهم إلى محجة سعادتهم، ويؤسسون لهم دور التعليم والقربات، وينشلونهم من السقوط الذي صاروا إليه بحكم الأيام. فلا بدع إن جاء مجموع الطوائف

المسيحية على قلبه في الشام، أرقى من مجموع الطوائف الإسلامية على وفرة عدده وسعة ثروته. وكان من أثر الرياسة الدينية المنتفية من الإسلام أن استخدمها أهل النصرانية في المصالح المهمة، فكان لهم فيها عموم النفع. وكانت هذه الرياسة على ما فيها ناجعة في تهذيب الشعب عندهم، فأخرجوه من تيه الفوضى إلى باحة النظام. وهذا هو سر الترتيب الذي تراه ماثلاً في المجتمع النصراني وهو على حصة ضئيلة في المجتمع الإسلامي ولا يؤاخذ الإسلام بانحطاط أهله وما المؤاخذ إلا من أخذوا على أنفسهم عهداً بأن يطبقوا مفاصله فأهملوا واجبههم، ولو كان الدين عاملاً من عوامل سقوط أمة ما كانت اليابان وهي تدين بالبوذية في مقدمة أمم الأرض علمًا وعمرانًا.

ولا مشاحة في أن من طبقة الدينين فئة سالحة، ولكنها كانت في كل عصر تلقي الحبل على الغارب لغلبة اليأس عليها، وهناك فئة أشد تأثيرًا وظهورًا وهي التي طالما قدمت وأخرت وباعت من هذه الأمة المسكينة ما شاءت وشاءت منافعها ودارت في كل دور مع مطاعمها كيف دارت. إلا أن الدهر عاقب هذه الطبقة بما احتقته من الكبائر، فضربها ضربة آذنت بانقراضها؛ لأنها لم تجار الزمن في نشوئه، كأن تكون مثال الفضائل ترباً بأنفسها عن الغيبة والنميمة وتشرب أفئدتها. حب الصدق والصدق بالحق وتحمى مزالق التغرير والتضليل وتحضر وكدها في واجبها من إرشاد العامة من طريق العلم الصحيح، في زمن اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث، أو بين الدين والإلحاد، وتجلى الانتقال في كل مظاهر الحياة. وما زالت هذه الفئة تحاول أن تسترد بالثروة والتبجح مجداً زائلاً، وهي في حالة المحتضر لا تبدئ ولا تعيد. وما تحدثت أن تخرج من جهالتها، وتتطور بطور العصر، وتأخذ بحظ من العلم الديني والمدني، وتتحلى بشيء كثير من مكارم الأخلاق.

كان أحد أفراد هذه الطبقة أبلى في الدعوة الدينية بلاء حسنًا، ورزق قلمًا ماضيًا، وعزمًا مؤاتيًا، واستعد للنزول والنزال في ميدان دعوته، يحمل أكثر أدواتها. وما عثم أن ترك ما هيأته الفطرة له وأكسبته إياه التجربة وطول المدة وحاول. بلوغ مظهر جديد اعتقد أنه جماع المظاهر، وهو لم يتمرس بآدابه، ولا عرف مداخله ومخارجه، وغلبه حب الشهرة فادعى ما لم يخلق له ولا تخلق به ونسي الغرض الذي يضطلع به، وراح يستغل موضع الضعف من فطرته ولا يعمل فيما يرجى فيه كماله، ترك سيرته الأولى وهام بمظهره الثاني، زهد فيما يحسن وحاول التلبس فيما لا يحسن. وغريب من إنسان لم يقنع بمنزلة طيبة وضعته فيها بيئته وتربيته، ويجاهد جهادًا آخر في ساحة الوغى ولا سلاح معه يستخدمه، ولا آلة من أدوات الحرب يتقنها، الذكاء وحده ينفع إلى حد معين، وأدوات النجاح في طريقة تحتاج إلى علم وفطرة. والعلم بالتعليم والترييض، والفطرة هبة لا تُباع ولا تُشترى.

أنت يا هذا إذا حفظت قواعد علم من العلوم، يتعذر عليك أن تدعي الكيمياء والطبيعة أو السياسة والاجتماع، علوم مختلفة طويلة الذيل لا ينفع معها التخليط. القواعد المجملة التي تحفظ من كتاب في موضوع تحتاج في إتقانها إلى صرف طائفة طويلة من عمرك فلا تعطيك القريحة قياد كل أمر ولا تيسر في سبيلك كل دعوى. ولذلك ترى من هذا شأنه صاعدًا متدليًا، ينفي اليوم ما أثبت أمس ويحارب حينًا من سالمه زمانًا يصانع أرباب القوة طورًا ثم يقلب لهم ظهر المعجن تارة، إذا لم يستمرئ ما أطعموه ولم يستقبل من أمره ما استدبر في وضع الخطط التي خطها لهم، والناس كلهم في نظره صغار عقول وأرباب فضول وهو لا يرى غير نفسه استجمعت ضروب المحامد، ولذلك لا يضمن عليها بما يمجدها، ويضع الألقاب الضخمة لها وينوه أبدًا بما انطوى عليه من شرف وعلم

وعمل، ومن رضي عنه من الناس ينيله من عطفه ما لو وزن أيضًا في ميزان القسط لشالت كفته. والعاقل من أنصف نفسه قبل أن ينتصف الناس منه، ومن ظلم نفسه كان حرًا بأن يظلم غيره، ولهذا أمثال غير قليلة فيمن يلقبونهم بـ«البارزين» والخواص أي النابهين.

نموذج آخر. بينا تجد الأول يجرع دعوته كما يجرع الصاب والعلقم ويستعلي ويستطيل ويحاول أن يثبت أنه مصدر كل خير، لو استمع الناس له لتمت سعادتهم الدنيوية والأخروية، ترى أخاه قد اتخذ في الحياة غير طريقته وخالفه في سيره وسيرته، فقد لقن في صباه مجملات يحكم فيها بالجزئيات على الكلّيات حكمًا مسمطًا ويتلطف ويتطرف ليجد السبيل إلى قلوب العامة والسوقة؛ لأنهم كثير سوادهم يستميلهم بالدعابة والفكاهة، وماذا يهمه من الخاصة وهم قليل عديدهم، وما يناله من غضبهم ورضاهم ما دام الجمهور عنه راضيًا. وأحسن ما يراه للوصول إلى قلوب العامة أن يرضي كل صاحب سلطان؛ لأن في رضي القوي تنطوي المظاهر والدنيا وهو عبدها وغايتها من الحياة السجود على أبواب سدنتها، لا يبالي أن يصعق كل من لم يمالئوه، ويتوهم أن النقاد لا يفرقون بين الزيف والبهرج، ولا بين الهازل الماجن والمجد المجاهد، والعلم الحقيقي يولي صاحبه عزوفًا، وإذا قرن بالتهذيب لا يحاول صاحبه درجة إذا تخطاها أدركه العثار.

عرفت عالمين دينيين أريدا على أن تفتح لهما أبواب الرزق، وتغدق عليهما المظاهر على أن يسفا إسفًا خفيًا يكون في السكوت عن رجل كان لهما صاحبًا قديمًا فحاز مظهرًا كبيرًا من مظاهر الدنيا حسده عليه عبيد المطامع والشهوات، وكان جوابهما كل مرة أن من لا يعمل للمصلحة العامة لا يستحق صداقتنا، ليأت ما استطاع من الخير ونحن بالطبع له الأخلاء الأوفياء لا نريد منه جزاء. وهكذا قاطعاه وهو الحاكم

المتحكم في الدولة، وهكذا عزفت نفسها عن أن يرقصا للقرد في دولته ويزينا للظالم ظلمه وهو في أوج عزته؛ زهدًا في الجاه العريض لزهد صاحبه في الفضائل وشدة هيامه بدرهمه وديناره. رجلا نياكلان اللقمة بالتسفل والرياء وآخرا ن جاهارا بأنها تؤكل بدون هذا. وهذا مثال من أخلاق بعض المعاصرين، وعبرة للأعقاب في الغابرين.

ظهر التعطيل في الإسلام منذ قرون، بما قام به المبتدعة من أهل الطرق وسخفاء الدجالين والقصاصين، فانحطت العقول وضعف مستوى العلم والتهديب في الناس فمن تصدى يا ترى لمحاربة هذه الضلالات التي لم ينزل بها سلطان؟ فشت أخلاق سيئة تخالف هدي الدين فتغافل الموكل إليهم هداية الخلق عن انتشار سمومها كأنهم يقرونها، وتركوا رعيتهم هملاً كالسائمة. وكانت دروس العلم مباحة مورودة إلى أوائل هذا القرن، وبتساهلهم كاد العلم الإسلامي ينقرض. وجاء كثير من مرتزقة الوعاظ والخطباء والأئمة والقضاة جهلاء يفتون بغير علم، ويخطبون بالمتذل الساقط، ويلهون الجمهور بالقشور، ويبيعونه من سلعم الكاسدة ما لو ائتمر العوام بأوامرهم لرجعوا ألف سنة إلى الوراء. وإذا اجتمع هؤلاء الدينيون إلى أكثر زعماء الأديان الأخرى، ظهر الفرق بين التقصير والعناية وتجلت المباينة

بين من ساروا مع الزمن، ومن عاندوا الحقائق وحاربوا العقل وجمدوا في الفكر، ومالوا إلى الكسل عن عمل. وفوق هذا تراهم يجمعون أموالهم بخرق حرمة كل قانون وشريعة، وهم متخاذلون متفائلون لا يكاد واحد منهم يزكي أخاه، ولا تجد خمسة منهم اتفقوا على مقصد واحد من مقاصد الخير. والعاقل يرجح الأمية على هذا العلم الذي لم ينتج خيراً لأهله ولا لغيرهم، والأميون لا تصدر منهم هذه

الجرأة على العبث بناموس الكمال. ومن تفلتوا من حدود الشرائع على قربهم منه، كانوا أشد انتقاضاً عليها من الجاهلين والغافلين.

وتتصرف على هذه الطبقة، طبقة تلتحم بالخاصة أو العليا أيضاً، من جماعة المتعلمين على الأصول المدنية الحديثة، فقد دب في بعض هذه الطبقة سوس الفساد ولما تزل في بدء تأسيسها، وظهر لأرباب البصائر أن الدروس الطبيعية والرياضية والاجتماعية والفلسفية والحقوقية تنير العقل، ولكنها لا تحسن الأخلاق، إذا كانت منحطة من أصلها. وربما كان العلم في بعض هذه الطبقة أداء شر تستخدمه حبال لصيد ما يسد المطامع. والأخلاق مغروسة في الدم والأسرة، والعلم صناعة يتعلمه الذكي الدائب.

وقد تلونت صبغة هذه الفئة في هذه الأرض الطيبة، بألوان أهوية الأقاليم وجوائها، بل بألوان المدارس التي تخرجت بأساتيدها، فمن تعلم منها في مدارس التبشير التي بها أهل أوربة وأميركا على آسية وإفريقية، جاءت إلا قليلاً منحلة من ربة حب الوطن وعهدة حب الجماعة، واستحكمت في كثير من أفرادها الأناية والأثرة استحكاماً هون عليها كسرة قيود الحكمة والخروج على الأدب الصحيح.

وقد اشتهر بعض هذه الطائفة بمعاداة الدينين والأعيان، والإزراء بسائر الطبقات وأكل الحسد والحقد قلوبها، فهي لا تتحاب بينها ولا تحب غيرها، ولا تعرف من محيطها أكثر مما يعرف الدخلاء، شمخت بأنوفها، واحتقرت كل من لم يجر على مثالها، ولا تثقف تثقيفها. ومنهم من دفعه ما لقفه من تربية وحصله من تعليم ناقص، إلى خدمة الغريب، والفناء في محبته والدهشة بكل ما يأتي على يده وقبول كل ما حملة من خلق وثقافة والتغني بتاريخه ومجده والتغزل بجمال بلده والإعجاب

بأوضاعه، أخذ كل ما أعطاه شاكرًا مغتبطًا، فخرج بذلك عن قومته، وكثير منهم هجر بلده، إلى مكان ينبت بزعمه العز ويدر أخلاف الرزق.

ومنهم من تعلموا في مدارس الدولة المنقطعة وتخلقوا بغير أخلاقهم، وانحلوا زمنًا من قوميتهم فلا يفكرون ولا يتكلمون إلا بالتركية، ولا يكتبون إن كانوا ممن يحسنون الكتابة إلا بالتركية. فلما تبدلت الحالة السياسية بعد الحرب العامة دفعتهم الضرورة إلى ادعاء العريية وكانوا من قبل يعقونها وهم من أبنائها، زاعمين أنهم تبدلت أخلاقهم بمجرد الانتقال من دور إلى دور.

وليست الأخلاق بدلت تنزعها، ولا طلاء تزيله وتستبدل غيره به. ولما كان معظم من تعلموا هذه العلوم في العهد السابق من أهل الطبقات النازلة في أصولهم، كان الموروث ولهم والمائل فيهم من الأخلاق مثالاً من أخلاق أهل جرثومتهم، ولذلك هان عليهم ويهون في كل دور أن ينزلوا عن مشخصاتهم لأول طارئ. وهذه الفئة مضرة بأخلاقها أكثر من الجهال لأنها تعلمت تعليمًا ممسوخًا ظنته كل شيء. ومذ فارقت المدارس التي تفاخر بأنها تحمل شهاداتها، وكثيرًا ما نال شهاداتها المتوسط الغبي، ظنت أنها قبضت على قياد العلوم وودعت الكتب فصارت ترجح القهقري في معارفها الأولية وتجلت أخلاقها في كل ما عانت من الأعمال، فكانت إذا وسد إليها أمر تلتهم الأخضر واليابس، وإذا بدا لها طمع تهزأ بالفضائل إذا لم تجلب لها السعادة التي تتصورها.

رأى المجتمع من سقوط الأخلاق في بعض أهل هذه الطبقة ما تندى الجباه من تسجيله: رأى منهم من يقول ولا يخجل أنه إذا قيل لهم: إن الحالة الحاضرة

ستتبدل بعد عشرين سنة يفكر مذ الآن في أمر راتبه الذي يقبضه من سلك ما كان يحلم أن يحشر في جملة أهله، ويقول أبدًا: اعذروني إذا خدمت أغراض كل صاحب قوة كما يشتهي، وإذا كنت له آلة في كل ما يحب.

هو غني الجيب فقير النفس، جاهل يحشر نفسه في العلماء، والطبيعة تضعه حيث تريد.

ومنهم من جعل رأس ماله في مصانعه ولاة الأمر مهما كانوا والتقرب إليهم بكل حيلة؛ لينال مظهرًا يظهر به، لاعتقاده واعتقاد كثيرين أن الشرف كل الشرف في التقرب من الحكام، وأن كل مجد جاء من غير طريقهم لا وزن له إذا نصبت الموازين، وهؤلاء المتصدرون أسوأ مثال لمن حولهم.

يحبون إليهم الاتكال وضعة النفوس، وكأنهم يقولون: إن سبيلهم لا غيرها هي سبيل الفلاح والتمجد، وأن الفضائل لا شأن لها أمام المغانم، وأن العلم لا ينفع بغير تدليس، والطريق المسلوك عندهم طريق المداجاة والمحاباة، وإتقان المؤامرات والسعايات.

ومنهم أناس ظنوا ويا لسوء ما ظنوا، أن السعادة مناط القحة، والسعادة هي المال، والمال محلل أخذه من كل وجه، فتراهم يرتكبون كل شائن من العمل ليجمعوا مالا ويعددوه ويستمتعوا بمتع الحياة، فهم حراس على كل ما يوصلهم إلى غايتهم، سلاط في التسور على مقامات أهل الفضل، يصمونهم بكل كبيرة وينيزونهم بالخفة والرعونة، جوزوا لأنفسهم السرقة؛ لأنهم لا مآرب لهم في غير الإثراء، وجمع المال جماع المزايا في نظرهم، احتقروا الشرائع فهان عليهم بتبديل مذهبهم والتقرب إلى أهل كل دين وطريقة بدينهم وطريقتهم، ولو أنصفوا لعدوا لصوصًا عارفين باللصوصية، واللص يسرق خفية من طريق واحدة قد يكون فيها مكرها

ليطعم نفسه وعياله، وهذا يسرق جهرة من كل طريق ويزيد على لؤم طباعه تبجحًا بالمبادئ والشرف والأمانة، ومن الغريب أن يُرى حتى من الأذكياء من يجلونهُ أو يغالطون أنفسهم في انحطاط أخلاقه وهم يعرفونها، ورحم الله شاعر مصر إسماعيل صبري حيث قال:

غاض ماء الحياة من كل وجه ففدا كالح الجوانب ققرا
وتفشى العقوق في الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نشرت على الأجـ دات وردًا إن هنَّ أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلاً ولواد ين في الحشا لما قلن خيرا

ومنهم أناس ورثوا عن آبائهم استحلال أكل السحت والعبث بحقوق العباد، فلما تلقفوا القشور اللازمة لهم في المدارس التي سموها بالعليا ومرنوا على النفاق والباطل ومردوا على آداب الأديان وخرجوا عن أوضاع المجتمعات، جاءوا سراقًا يسكنون القصور، وعاشوا طول حياتهم في ذل النفوس، يجمعون بين المنازع المختلفة في وقت واحد علمًا بأن إحداها لا بد أن تكتب له الغلبة، فإذا نجح كان لهم حظ من نجاح أهله، وإذا أئمر الآخر لم تفتهم خيراته، جعلوا بيوتهم للخمر والقمر أندية ومسارح، وفظموا نفوسهم إلا عن إشباعها المال الحرام، وهم بأصحاب الملاعب أشبه منهم بالمتعلمين أصحاب المراتب، وإذا دخل الغر حانتهم وفيها كل مفعول جائز هان عليه انتهاك الحرمات، وإذا عاشرهم تعلم في بؤرتهم من التزوير والتغدير ما يعاب به الحيوان فضلاً عن الإنسان.

ومنهم من ورثوا التذبذب من بيوتهم وأخذوا الدس والوقية بالسند المتصل بأبائهم، وكان قصارهم أن يحرزوا مناصب تمكنهم من المتاجرة بحقوق الناس ودمائهم، ليتأثلوا وينفقوا في السفه ما تألثوه، فهم لا يستنكفون عن التقرب من أصحاب الشأن بكل ما لديهم من الوسائط،

ويسمون لعامة أصناف الناس بل ويصانعونهم على حين تلعنهم قلوبهم، وهم موقنون أن المصانع على الجملة يعرف كذب مصانعه، ومع هذا يمشون في طريقهم وهم لا يحبون

أحدًا ولا يحبهم أحد، ونزع عقيدة عُرفوا بها أمس، لتقلد غيرها اليوم، أسهل عليهم من نزع أحييتهم وقمصانهم، قضوا أعمارهم في نصب الحيل والمكايد، لا يلذهم من دنياهم غيرها، وأكبر أفراحهم يوم يغشون ويسري في الناس غشهم، كأن المدرسة التي تعلموا فيها لم تعلمهم غير ذلك.

ولكن هي الفطرة إذا فسدت فكل خير يأتيها يكون عارضًا عليها، تنبذها ولا تسيغها.

ومنهم أناس عرفوا منذ قبضوا على زمام أعمالهم بسلب نعمة الضعيف ومحاولة التقرب من القوي نبذتهم الطبيعة أولاً، ثم عمي الدهر عنهم فبلغوا مأربهم من المراتب، ولم تسعهم جلودهم يوم شاهدوا العز بعد الذل، فظهروا في مظاهر من الكبرياء والعظمة، ومن أين للسافل بأصله أن يكون في فرعه عاليًا، حصروا همهم في العبث بالمصالح العامة، يفكرون بغير إملاء جيوبهم، والدهان لسادتهم مهما كانوا، وتوفير المنافع لمن يحف من حول عروشهم، وإن كانوا من أحد الطبقات معرفة وأخلاقًا. وقد رأينا من هذه الطائفة من يغير سيرته في السنة الواحدة مرتين، ويدخل في آن واحد في عدة أحزاب وجمعيات سرية وجاهرية، يقسم لكل واحد منها اليمين الغموس، معاهدًا طائفة على الإخلاص لطائفتها وحزبها وطريقتها دون غيرها، وهو لا يتوقع من هذه المرونة المستغربة إلا أن يكون له شأن مع كل حزب إذا كتب له الظهور.

ومن هذه الفئة أناس لا يهنأ لهم بال إلا إذا اغتنوا، فلما انتفخت صناديقهم بالورق والورق، ضيقوا حتى على بنينهم وبناتهم لثلا يسرفوا في أموالهم، فاضطروهم إلى ارتكاب كل شنعاء، أما هم فعادوا يدعون الفاقة، فتراهم لا ينفقون إلا ما يحفظ عليهم مظهرهم، ويوصلون إلى مراميتهم، كأن الدينار جعل للخزن فقط، والسعيد من يجمعه ولو لم يستمتع به حياته، ويخلفه لمن هم عليه أشداء الأعداء، ويصرفونه في العهر والخمر والزمر والقمر، ولو أنصف هذا نفسه لأنفق بعض دخله على ما يرفع مستوى أمته ويزيل بؤسها، وفي هذا الظهور له أيضًا إن تآقت نفسه إلى الظهور.

ومنهم طائفة تصلي وتصوم، وتلزم المساجد ودروس الوعظ، وتتظاهر بالدين، وتتقرب إلى حملة الشرع وأرباب الصلاح لا تُقلت السبح من أيديها، تتظاهر بأنها تذكر اسم الله في غدوها ورواحها، وهي في باطنها من أشد الخلائق عداوة للإنسانية، تقول بألستها ما ليس في قلوبهم، ولو كشفت عنها الغطاء لأيقنت أنها من الشفقة بحيث لو شاهدت صغارًا يتضورون جوعًا ما أطعمتهم فتات موائدها، ولو بضررت ببائسين يرتعدون دنقًا وعريًا ما كستهم بلاس بلاطها ولا زودتهم حثالة مطابخها وأهراثها، وإذا وقع لها أن أكرهت على نجدة بائس مثوف تبجحت بما أتت، وقامت تومئ بلسان الحال إلى أنه لولاها لانهار بناء الأمة وتداعت صروح مجدها، وتوهم أن وجودها رحمة، وعملها غبطة ونعمة، ولها في نشر ما تتخيله محامد، أساليب غريبة مضحكة.

ومنهم أناس إذا عرفتهم في العهد الماضي عرفتهم بعجمتهم التي لا غبار عليها، وهم ما كانوا يجوزون لأنفسهم التكلم بلغتهم الأصلية، فلما تبدلت السياسة تبدلوا لساعتهم، وصاروا لغير ما سبب معقول حربًا على من كانوا بالأمس يتمنون رضاهم، وأخذوا أنفسهم وأبنائهم بتعلم لغة من

جاءوهم، وغيروا عاداتهم ولهجاتهم، وأنشأوا يستخدمون كل الطرق للاحتفاظ بكراسيهم، حتى إذا جلسوا عليها نسوا فضل المفضلين عليهم، وقد عاهدوا أنفسهم أن يخدموا كل صاحب قوة بالصورة التي تروقه مع ذكاء فيهم وتجربة أحرزوها فهان عليهم أن يبيعوها مقابل عرض قليل ومظهر ضئيل. التجسس فيهم فطرة والإزراء بالقومية والوطنية من مآلوفاتهم ما أساءوا استعمال ما ائتمنوا عليه إلا ليغتنوا بطرق عرفوها، ويغنوا أبناءهم ولو كان في ذلك هلاك مئات من الناس.

ومنهم أناس كانوا في أخذ المال كالعلقة يمتصون الطاهر وغير الطاهر ثم يفيضون منه على القانع والمعتز، ويطعمون الطعام ويكسون الأيتام، ومنهم من جمعوا عشرات الألوف ومئات الألوف ولا توجد أنفسهم بدائق لتعليم أطفال الفقراء وإنجاد البائسين وإكساء العراة، وإذا تصفحت جرائد الجمعيات الخيرية التي قامت في العهد الأخير لتعليم اليتامى وإغاثة المحاويج، لا تسقط فيها إلا نادراً على أسماء بعض أرباب السعة؛ بمعنى أن هذه الطبقة كانت أقل الناس في معاونتها، والطبقتان الوسطى والنازلة هما اللتان جمعتا الدرهم فوق الدرهم، اقتطعتاه من رزق عيالها، لتطعما به من هم أجوع منها، وتنشل من السقطة من هم أكثر سقوطاً من بنيتها.

وفي هذه الديار عشرات من الأغنياء يدمجون في سلك الأعيان يعتزون بأموالهم، ويضنون بها كل الضنائة، اللهم إلا إذا كان في صرفها إرضاء شهواتهم، وتوفير أنواع رفاهيتهم. وإذا أشير إليهم أن يشاركوا في المصالح الوطنية لووا وجوههم، وهزءوا في باطنهم بهذه الأعمال التافهة، حتى إذا حلت بهم مصيبة أخذوا يستنجدون ولا ينجدون، ويطاقون ألسنتهم في رجال كانوا بالأمس يقدسونهم، وأنى للأمة أن تعرفهم أيام شقائهم، وهم لم يتعرفوا إليها أيام سعادتهم. هذا وهم أنصار كل حكومة

تسوغهم أكل حقوقها وحقوق الضعفاء، وتطلق أيديهم في ظلم الفلاحين والمغفلين، وتعاونهم في محاكمها على فض قضاياهم بما يتفق مع رغائبهم، وتوسد إليهم أمورها المنتجة لهم مالا وجاهًا.

في هؤلاء الأعيان رجل كان عنده من أدوات الزينة والتبرج ما يساوي المئات من الدنانير، وربما كان ثمن ريبات رقبة المعمولة من الحرير لا يقل عن ألف جنيه؛ لأن عددها كان ألفي ربطة معروضة في قاعة كبيرة، وكنت إذا أردته على أن يبتاع جريدة ليقراها شكا إليك ضيق ذات يده، وأظهر أن القراءة مما لا تسمح له به أوقاته الثمينة، وكان يدفن أمواله في الأرض حتى لا يظهر عليها الناس إذا وضعت في المصرف، فظهر ألوف بعد أن أصيب بنكبة اضطرتته إلى نبشها. وبلغ الشح ببعضهم أنه كان يطعم خدامه وأولاده طعامًا غير ما يطعمه نفسه وزوجه، ويدعي مع كل من يجتمع إليه أنه فقير مملق، لا طاقة له على تحمل شيء، فلما اضطر إلى الكشف عن دوائته كانت ألوفاً عدا ما يسلفه بالربا الممقوت أضعافًا مضاعفة وعدا مزارعه وحدائقه. ومن الغريب أن يتطوع مثل هذا الرجل الذي رد إلى أرذل العمر في الجاسوسية وهو ينظاير بالتقوى، وأكثر هؤلاء الأشحة يظهرون في العامة بمظهر المتصدقين والمحسنين، وكان تجود نفوسهم ببعض دربهات لبعض المستكدين على رءوس الأشهاد، ليقال عنهم: إنهم أهل خير وصلاح. وهناك رجل يكذب على قومه طول حياته الطويلة، بنسبه وعلمه وتقواه، فلم يعدم ضعاف العقول من صدقوه في دعاويه، وعاش بمداهنة الناس وبلغ من ثقة القوم به أنه إذا حانت منية أحدهم، يلوب على من يآتمنه على أولاده بعده، فلا يجد غير هذا المزور يقيمه وصيًا على عياله لما اشتهر من أمانته بين السذج في كل دور، فلا يلبث مال الموصي أن يمزق بيد الوصي. وهكذا كان هذا الدعي بعد نصف قرن من المشار إليهم المجمع على تكريمهم، وقد عرف أيام تنولي

القضاء بتبرئة المجرم وتجريم البريء. ومن العجب أنه لم يسأله أحد من أين جاء بثروته، والعادة على الأكثر أن لا يسأل الغني عن طرق غناه بل يتمسح به ويتبرك بأنفاسه، ولو كان لا ينزل منه عن قطمير لأحد.

ظهر كثير من العامة في حوادث وقعت بمظهر الغبراء على المصالح الوطنية، وأبانوا عن حمية وأريحية ما كان يرجى صدور مثلما من أرباب الطبقة العليا، ولا ممن اعتادوا أن يجعلوا من الأديان سلمًا إلى درك شهواتهم، وقام من صفوف الأमीين وأهل المترية أناس جعلوا هدفهم ما اعتقدوه حقًا نافعًا مخلصين في أقوالهم وأفعالهم، معتقدين الخير فيما بذلوا أنفسهم ونفائسهم في سبيله. وتجلى النبوغ في أفراد منهم بحكم قانون الرجعة، فأثبتوا في الشدائد بهذا الشرف المغيب أنهم ربما كانوا من سلالة عظماء أكارم. وهناك أناس ظاهرهم مهذب براق آثروا امتهان النفس في أحسن الأعمال مقابل عرض ينالونه أو إقبال يتخيلونه، فارتكبوا كل ما يورثهم عار الأبد، فكان ظاهرهم مجملًا، وباطنهم خبيثًا وخديعة، يفادون بكل ما ليس لهم فيه مصلحة، ويداجون كل من يلقاها بما يريد، ولعلك على حق إذا قلت: إن صيغ الكلام تضيق عن وصف أفعالهم. فهم ممن حُب إليهم من دنياهم أذى القريب لا ينامون ملء جفونهم إلا يوم يوقعون بأصحاب الشرف والمروءات.

وما لنا والإكثار من ضرب الأمثلة بفتة هي معقد الآمال في الإصلاح وهي لم تكد تحقق رجاء إلى الآن، وليست في أخلاقها مما يرغب المرء كثيرًا في تكثير سوادها؛ لأن منها من تجرد من معنى الحق والصدق. ولو حللت نفوس أكثرهم تحليلًا دقيقًا لرأيتهم أعرف الناس بالمدخل والمخرج وأعرافهم من أكثر الفضائل الكسبية واللدنية، ضعف عطفهم على جنسهم وهان عليهم أن يبيعوا وجداناتهم لمن يضمن لهم مظاهرهم. فهم أبدًا سلاح الغريب على القريب، وهم يده الباطشة وأظافره الخادشة.

ولطالما نضب حلم أرباب الحلوم من تلاعب أناس استناروا بقبس العلم الحديث، يتهارشون على أبواب جمعية مدنية وهم في الحقيقة لا يهمهم من دعوتها إلا أن يحموا بسلطانها سلطانهم، ويستروا في حمى كهفها معاييهم، ومن الغريب أنه لا يكاد يرقى في درجاتها إلا من عرفوا بالاسترسال في حظوظهم، وكانوا من الممقوتين في العرف والعادة، وهذا وقانون الجمعية شديد في التسامح مع أمثالهم، ولكن كل قانون ينصبغ بصبغة محيطه، وما دام المحيط على ما ترى فلا بدع إن كان بعد هذا أعظم قانون سماوي أو أرضي في حكم العدم.

ولا يفوتك أن الطبقة الوسطى في ديارنا هي التي تتمثل فيها الأمة حقيقة لا مجازًا ويكثر فيها الخير ويقل فيها الشر، وهي التي تقوم بجلب المنافع ودرء

المضار، وتعيش في خوف الديان، وتهتم لسعادة الأوطان، وهي في الغالب محدودة بعقول أبنائها، وكثير بما يتم على أيديها من الخيرات باجتماعها، وهي التي تفكر وتقدر وقد قام كثير من الأعمال النافعة بصنيعها ومن وضعها، فيهم الصبر وفيهم الأناة وفيهم الرحمة، وخسيسهم أقل من رفيعهم، هم قوة الظهر في جيش الأمة بل في طبيعته المتيقظة. السخاء مغروس في أكثرهم والمروءة والوفاء غريزتان يورثهما الآباء لأبنائهم، وهم يعدون عن أرباب السلطات، دأبهم التوفر على صناعتهم وزراعتهم، وقلما تحدثهم أنفسهم أن يتخذوا بديلاً عن عمل عاناه آباؤهم وأجدادهم.

الأخلاق التي تعبت بالفضائل هي التي رسخت في بعض العلية من أهله. وشهد الله أن هذه الأمة لا تشكو قلة علمها بقدر ما تشكو ضعف أخلاقها، وإذا أخذت المطاعم البشعة من قلوب دعاة الإصلاح وحماة

الحوزة كيف يوجه اللوم على من كان دون طبقتهم؟ ومما يسوء أن كان أقرب الناس إلى إدراك معنى الفضائل أسرعهم إلى عقولها وانتهاك حرمتها. وإذا كانت في الطبقة الوسطى هناك لا تخلو منها إنسان فهي كالعوذة يتقي بها شر الحاسد، ويصان بها جمال المكرمات والمحامد، وقلما يخلو بشر من عيوب صغيرة ضررها على صاحبها وحده.

أكثر ما تعاب به هذه الأمة عصيانها على الأنظمة والشرائع لا تُطبق منها إلا ما لا يمس بمصالحها الخاصة، فإذا كان في بعضها ما يخالف الشهوات والأغراض خرجت عليها وحاربتها والمهيمنين عليها. ولذلك صعبت هنا في كل قرن مهمة المصلحين في إصلاحهم لقلّة الثبات وونى الهمم. فقد يسرع بعضهم في التصديق خصوصًا إذا أحسنت الدعاية بادئ بدء ولكنهم سرعان ما ينقضون العهد. ومن أضر ما يضر هذا الشعب أنه قلما يخضع للزعيم خضوعًا حقيقيًا تقرأ معانيه في حركاته وسكناته ولو كان الزعيم في الغاية من حسن الأخلاق وإرادة الخير لها. وهذه أخلاق العرب بعينها أفرطوا في حب حريتهم فحاول الصعلوك فيهم أن يكون وجيهاً فسارع الانحلال إلى دولهم بالطبيعة وظهر التخبط في إحرازهم الرياسات منذ فجر الإسلام.

وظلت هذه الأخلاق متسلسلة في دمائهم. وقد يريد الطامع في شيء أن تنقلب الدولة رأسًا على عقب، وتنتقل ولو إلى عدوه، على أن يتولاها قريبه الذي لا يحبه وأن يهلك في اللحم والنيران المستعرة فريق عظيم من قومه إذا كان له من هذا الحريق ما يشوي به سمكته.

وأنت إذا حللت روح الشاميين تراهم فرادى لا يقلون كثيرًا عن غيرهم من الراقين، وإذا جئت تحللهم جماعات فهناك التفسيح في القوى والانحلال في الروابط. والشاميون إذا اجتمعوا تخالفوا عادة على الرياسة

والتصدر، وتباينوا في الفكر والاجتهاد؛ لأن الذكاء غالب عليهم، وحب الذات مستحكم في شغاف قلوبهم، وكل واحد يريد أن ينفذ قوله ولو كان مغلطاً، وإذا لم يوافق رفقاًؤه على ما ارتأى عاداهم وربما آذاهم، كأن الاختلاف في الاجتهاد يستلزم العدواة والسخيمة. فلا تستغرب بعد هذا إن أصيبت أكثر أعمال الجماعات عندهم بالشلل والفشل ومنها ما يموت كالجنين في بطن أمه قبل أن يتمثل بشراً سوياً. وقد ينشئ غير المسلمين الجمعيات والمجامع ويحالفهم النجاح أكثر من غيرهم؛ لأنهم على تربية متقاربة وعلى تكافل ودءوب في الجملة. وما ندري لعل العامل في هذا النجاح الضرورة التي دعا إليها تماسك الصغير أمام قوة الكبير، على حين ترى أن هذا الكبير لا يحسن على الأغلب إلا الإدلال بقوته الموهومة والإعجاب بماضيه يقف عند حده، ولا يعرف أن يبرهن على العظمة الغابرة بسداد أعماله الحاضرة.

ومن عيوب السواد الأعظم أن الهزل يغلب عليهم، والجد قليل فيهم، يحبون المداعبة والهزل واللهو، ويسوء بعض اللثام أن يروا في قربهم من يجرد، يهزءون

بمن يعملون وهم لا يعملون ولا يعرفون كيف يعملون، فسييلهم سبيل العاقل والمعتل. ومن عيوبهم أنهم لا يصدقون صاحبهم لأن سوء الظن غالب عليهم، وهذا ولو جاءهم مستنصحاً مسترشداً؛ لأنهم أميل إلى المصانعة لا إلى الصدع بالحق، وأقرب إلى أن يرضوا جليسهم ويسكتوا أمامه عن هفواته، وربما التمسوا له في حضرته المعاذير حتى إذا غاب عن عيونهم نحتوا أثلته وعابوه بما قد لا تلزمه تبعته. ومن أجل هذا تأصلت في القوم عادات وأخلاق كان يتأتى نزعها لو كتب لها من ينقدها وينكرها غير مدالس ولا موالس. فالنعومة الظاهرة التي تشاهد في بعض الشاميين يحتاجون معها إلى شيء من الخشونة والقسوة.

كانوا في الأيام الماضية إذا أرادوا الحط من شخص سلبوه صفاته واتهموه «بالمروق من الدين» وربما أوصلوه بهذه التهمة الشنعاء إلى ضرب عنقه، وهذا من بعض الأسباب في قلة النوابغ في القرون المتأخرة. واليوم نشأ لهم زي جديد من أزياء التهمات يلبسونها من لا ترزيهم حاله، أضافوا إلى من يحاولون النيل منهم تهمة «المروق من الوطنية» كأن الوطنية ما هم فيه من الختل والتخاذل وطلب الظهور بقاصمة الظهر. ويا لشقاء الدين والوطن كم اتجر بهما متاجرون في الغابر والحاضر، ومن تدبر أحوال هذه الطائفة بأدنى نظر أدرك أن كل من يتبجحون بهذه الدعاوى هم أول من يدوس كل مقدس لبلوغ غرض حقير.

والدواء الناجع في مداواة هذه الأخلاق هو أن يكون للصغار مدارس وطنية متقنة تلقنهم العلم الصحيح والأخلاق الصحيحة والقومية الصحيحة. أما الكبار الذين اشتهروا بسوء القالة فيقاطعون ويتجهم لهم العقلاء في كل أفق، لا يدنونهم من مجالسهم مهما بلغ من سلطانهم وجاههم ومالهم، فإن من السخف التلطف مع الأشرار في المحضر، والتهماس في قبيح سيرتهم في المغيب، يجب أن يناقشوا الحساب ولا يؤمن لهم على خطاب «والمؤذي طبعًا يقتل شرعًا».

سيقول فريق ممن يقرءون هذه الصفحات: إنها أغرقت في وصف أخلاق الطبقات وفضحت ما كان مكنونًا لا يعرفه إلا أرباب البصيرة، ونحن في زمن أحوج ما نكون إلى السكوت عن المعاييب حتى لا يبدو عوارنا لغيرنا، كأن غيرنا لا يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا. وكان الأولى في عرفهم أن نجامل ونجمجم؛ بيد أن السكوت عن العيوب عيب كبير، وكتمان العلة مدرجة إلى الهلكة، والتاريخ لا يكتب على الهوى ولا يُملَى لإرضاء الناس. وما نخال منصفًا بصيرًا إلا ويعترف وهو مثلنا جد آسف أن ما أصاب هذه الديار من المصائب منذ عهد طويل لم يكن إلا بسوء

أخلاق من تولوا من أبنائها أمرها، وأنه من المستحيل بعد أن صرح الحق عن محضه أن تُولف الشام كياناً يذكر وتقوم في ساحة الحضارة البشرية بعمل يشكر، ولو أُوتيت علم الجرمانيين واللاتينيين، ورُزقت غنى الإنكليز السكسونيين، ما دامت أخلاق أهل الحل والعقد فيها لا تعالج بالتقويم، ولا يحاول القضاء على مواطن الضعف من نفوسهم وعقولهم، الساكت عن الحق شيطان أخرس.

فصلته لكن على عقلي فما مقياس عقلك كان لي معروفا

حياة محمد كرد علي

مؤلف خطط الشام

«ترجمته بنفسه»

أصل أسرتنا من السليمانية تنسب إلى الأكراد الأيوبية، جاء جدي إلى دمشق في التجارة، وكان من أهل اليسار فراقته وسكن فيها، ثم ذهب في بعض السنين إلى الحجاز متجراً، واتفق له أن انتقد ذات يوم عملاً من أعمال محافظ الحج، وكان ظالماً جباراً، فشق ذلك عليه، وأمر بمصادرته في كل ما يملك، فاضطر أن يذهب إلى الأستانة مستعدياً، وما زال يعمل الوسائط حتى اجتمع بالسلطان، واقترح عليه هذا أن يصرف النظر عن دعواه على محافظ الحج، ويأخذ مقابل ماله قريتين في الشام إقطاعاً له ولأولاده من بعده، فأبى وقال للسلطان: ما جئت لأخذ صدقة بل جئت أطلب عدلاً وإنصافاً.

وهكذا رجع إلى دمشق مجرداً من ثروته وهلك قهراً بعد قليل. وخلف والذي يتيماً فقيراً فاشتغل لأول أمره في صناعة الخياطة ثم بالتجارة، فأثرى مرات وخسر مرات، وابتاع في آخر أمره مزرعة صغيرة في الغوطة تمزرتها أنا وإخوتي منذ كنا صغاراً وإلى الآن.

ولدت في دمشق أواخر صفر سنة (١٢٩٣هـ) (١٨٧٦م)، من أم شركسية، ولما بلغت السادسة في العمر أخذت بتلقي القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعات في مدرسة كافل سييبي الأميرية، وتلت شهادتها من الدرجة الأولى، ثم دخلت المكتب الرشدي

العسكري فدرست مبادئ التركية، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة فأتاني والدي بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين، وبرعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية من درجة متوسطة؛ لأنني لم أتمكن على ما يجب من الرياضيات لإصابتي بالحسر وضعف البصر - بحيث لم أكد أتبين عن بعد ما يرسم الأستاذ من أشكالها وخطوطها في اللوحة، ففاتني التبحر فيها مع الأسف - عينت مدة ست سنين موظفًا في قلم الأمور الأجنبية، فأخذت في خلالها أتقن آداب التركية. وشرعت أنشئ فيها كما أنشئ بالإفرنسية، وقد اختلفت حولين كاملين إلى مدرسة اللعازارين للاضطلاع بآداب اللغة الإفرنسية، ودرست الطبيعيات ودروس الكيمياء بهذه اللغة لأزيد تمكّنًا منها.

وقد اقتطعت مع ذلك جانبًا من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها. وفي خلال تلك المدة اتصلت بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائري والسيد محمد المبارك والشيخ سليم البخاري وأخذت عنهم وعن غيرهم من مشايخ الطبقة الطبعة الثانية كل ما وسعتني قراءته، من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة. وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثرهم، والحرص على تراث حضاراتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة (١٣٣٨هـ) حميد الأثر، وكنت بدأت بنظم الشعر فنهاني عن تعاطيه أستاذي المبارك، وأرادني على إتقان الإنشاد فقط، وما ينبغي له من الأدوات؛ لئلا يشغلني الشعر بلذته عن طلب العلم، فصعدت بأمره، كما كنت قبلت نصيحة والدي وأنا يافع،

ترك الإنشاد بصوت رخيم؛ لأن ذلك كان يعد في نظره شيئاً وضيعاً كما روى ذلك عن شيخه. وهكذا حرمني والدي الموسيقى، وحرمني شياخي الشعر. ولولا نصيحتهما لعنيت بهذين الفنين، وكانا لي سلوى وأي سلوى؛ ولكن أستاذي المبارك خرجني بالغة والإنشاء. ووالدي، وكان عامياً يقرب من الأمية، أنفق عن سعة ليعلمني، فكان مدة سنين يدر الرواتب على أساتذتي، وقد ابتاع لي خزانة كتب كانت تعد في ذلك العهد شيئاً في بلدتي.

وأهم ما أولعت بمطالعتة - بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه - كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وأصول الشعوب ومدنياتهم. وطالعت بالإفريقية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتسكيو وبتام وسبنسر وفوليه وتين ورنان وسيمون وبوتمي ولافيس وهانوتو وبوترو ولويون وبرونتيروبي دي جولفيل ولمتر وسانت بوف، وتدارست المجالات الفلسفية الاجتماعية والتاريخية والأدبية بالغة الفرنسية.

وجريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب، وقلما دونت موضوعاً لم أدرسه في الجملة ولم تشربه نفسي. وعهد إلي سنة (١٣١٥هـ) بتحرير جريدة «الشام» الأسبوعية فحزرتها ثلاث سنين كانت مدرستي الأولى في الصحافة، وساعدتني فيها معرفة التركية والإفريقية، ثم دعيت إلى المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية أكبر مجلاتنا العربية، فنشرت فيها أبحاثاً جمّة في التاريخ والاجتماع والأدب مدة خمس سنين فبدأت لي شهرة في عالم الأدب العربي لمنزلة هذه المجلة؛ إذ ذاك بين أبناء اللغة العربية، وكثرة من تقع تحت أنظارهم من العلماء والأدباء والباحثين. وفي عام (١٩٠١م) هبطت مصر للسياحة بقصد الذهاب إلى باريز للدرس، فعرض عليّ صاحب

جريدة «الرائد المصري» نصف الأسبوعية أن أحرر في جريدته، فليت
الطلب متكارها؛ إذ كانت عاقتني عن العودة إلى الشام أمور قام بها
المشاغبون المتجسدة في دمشق، واتهموني تشفيًا بأمور هي من
المحرمات في عرف الحكومة العثمانية، ثم رجعت إلى بعد عشرة أشهر.
ومن أعظم ما استفدته من رحلتي هذه الأخذ عن عالم الإسلام والإصلاح
الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة.

وفي شتاء سنة (١٣٢٣) فتشت الحكومة العثمانية داري في دمشق
بحجة أنه علقت مناشير في شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة، وفيها
مطاعن في أحد الأعيان والوالي، ومثل هذه العبارة وهذه الأفكار لا
يحسنها ولا يعرفها غيري! فظهر للحكومة افتراء المفترين واكتفت بأن
شردتني أيامًا عن داري. وفي هذه الواقعة نظم صديقي العلامة الأمير
شكيب أرسلان قصيدة ارتجالية يداعبني بها، ويصف ما حلَّ بي مجسمًا
قال سامحه الله:

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| ألا قل لمن في الدجى لم ينم | طلاب المعالي سمير الألم |
| ومن أرقته دواعي الهوى | فسدون الذي أرقته الحكم |
| فكم في الزوايا تخبى فئى | طريد الكتاب شريد القلم |
| يرى الأرض ضيقًا كشق اليراع | ويهوى على ذا الوجود العدم |
| وكم ذا بجسرين من ليلة | على مثل جمر الغضا في الضرم |
| تمنى الأديب بها ندحة | ولو بات يرعى هناك الغنم |
| وكم سرورة تحت جنح الظلام | كسرٍ بصدر الأريب انكتم |
| يخاف بها حركات الغصون | ويخشى النسيم إذا ما نسّم |
| وإن تشد ورقاء في أيكة | تورقه في صوتها والنعنم |
| وكم بات للسنجم يرعى إذا | أديم السما بالنجوم اتسم |

يظن عمود الصبح انحطم
 لتهدى إلى مسكه عن أمم
 توهمه نحسوه قد هجم
 وقد أمكن الظلم لولا الظلم
 فما بالسهولة يخفى العلم
 ديار بها قد أوى واعتصم
 وكم بالمليحة من مستهم
 وآواه فيها الوفا والكرم
 طريداً يعاني الجوى والسقم
 ويرد العشيات أغلى الفحم
 ففوق السواقي وتحت السديم
 ودقُّ فلولا ح لم يقتحم
 وتحت المآقي كلون العثم
 وأسى تولى وكيف انهزم
 بجلق قال وقيل عمم
 كغارات عرب «الصفاء» بالنعم
 وقالوا سيجزى بما قد جرم
 بمرقاه لا تستريح القدم
 وتلك السموم وتلك الحمم
 وبعض بضرب عليه حكم
 ففات ومنه الرجاء انصرم

وطال به الليل حتى غدا
 ومن ذعره خال أن النجوم
 إذا ما السمك بدا رامخا
 ولولا الدجى لم يتم النجا
 والله در القسرى إذ خفته
 «فجسرين» «زبدين» و«الأشعري»
 ونحو «المليحة» رام الخفا
 ديار أبي أهلها غدره
 ولا شك رقوا لأحواله
 ليالي كانون في الأربعين
 بأرض تراها سماء وماء
 يجول وقد صار مثل الخيال
 وفوق الخدود كلون البهار
 وفي كل يوم سؤال وبحث
 وقد كان في كسبهم بينه
 فكانت عكى كتبه غارة
 وقالوا سيني إلى «رودس»
 وقالوا سيجمله أدهم
 وقد قيل «فزان» من دونه
 وبعض بسجن عليه قضى
 و«كرد علي» غدا عبرة

فيا كرد لا تحزننك الخطوب
 ومين رام أن يتعاطى البيان
 فذي حرفة القول حزيفة
 وكم نكتة أعقبت نكبة
 ومن بالكتابة أبدى هوى
 فيا كرد صبرًا على محنة
 وصبرًا على ورقات لها
 وواها لباقات زهر غدوت
 أزاهر نسر في جمعها
 وما نم إلا بنشر ذكي
 فقولوا لواش بكرد علي
 ... إلخ.

كان التضييق عليّ في الشام يزيد كما استفاضت شهرتي، والشهرة حقيقة كانت على صاحبها آفة في الدور الحميدي، فرأيت بعد طول التأمل أن المقام فيه عبثًا، فأخذت بالاستعداد للهجرة إلى مصر لأصدر مجلة المقتبس، فأصدرتها في أول سنة (١٣٢٤هـ)، وتوليت معها رئاسة تحرير جريدة الظاهر اليومية، وبعد سنة عُينت أمير سر تحرير جريدة المؤيد، والجرائد ثلاث التي توليتها في مصر هي «الرائد المصري» و«الظاهر» و«المؤيد»، وكانت من الصحف التي تصدع بالوطنية المصرية، وتنتقد سياسة المحتلين، ولذلك كثر أصدقائي من الوطنيين المصريين، فعددت بهم مصر وطني الثاني، وكادوا هم يعدونني منهم. وقد آذرت في مجلة «العالم الإسلامي الباريزية» التي ما زالت تصدر في باريس باللغة

الإفريقية إلى عهد قريب، حتى إذا حدث الانقلاب العثماني (١٩٠٨م) رجعت إلى دمشق وأصدرت في ١٧ كانون الأول (١٩٠٨) جريدة المقتبس يومية سياسية، بعد أن صدر المقتبس ثلاث سنين في القاهرة مجلة شهرية علمية، وعدت إلى إصدار المجلة أيضًا.

وكان المقتبس السياسي معتدلًا بلهجته، وطنيًا بمسلكه، ينتقد ما يمكنه نقده من مواطن الخلل في الإدارة العثمانية، وما رمى إلى الانفصال عن الترك قط، بل كان يرمي إلى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى، فلم يرق هذا أيضًا بعض رجال الدور الحميدي، وأخذوا يقاومون المقتبس وصاحبه، وقيمون عليه الدعاوى المزورة، يصدرها الظالمون المرتشون من الموظفين، ممن دأبنا على الكيد لهم، والعمل على تنحيهم، حتى جاء زمن وعلى المقتبس عشرات من الدعاوى، يطلب فيها أصحابها جزاء المفترى على الأكثر؛ لأنهم أبرياء بزعمهم مما نسب إليهم.

ومن أغرب دعوى الوالي الحميدي عليّ في السنة الأولى اتهمه إياي بالارتجاج؛ أي إرجاع عهد عبد الحميد الاستبدادي، وهو الدور الذي بكيت من أهواله، وقد هجرت الأهل والوطن فرارًا من كابوسه، ولكن أعماله في خدمة الحرية سنين طويلة، كذبت وأشياعه من الحميديين الاتحاديين.

وقد اضطرت في هذه الدعوى إلى مغادرة الشام، فركبت البحر إلى فرنسا، وأخذ الوالي يهدد القضاة بالعزل إذا لم يحكموا عليّ بالجباية، وصرفت الوقت في باريز أدرس مدينتها وأستفيد من لقاء علمائها وساستها، ووقفت ووقوفًا حسنًا على حركتها العلمية والسياسية، وذلك بواسطة جماعة من أصدقائي علماء المشرقيات، عرفوني إلى الطبقة العليا

التي أردت التعرف إليها في عاصمة الفرنسيين، وفي مقدمتهم فيلسوف فرنسا المرحوم إميل بوترو، وقد سألته أن يكتب لي جريدة بأمهات الكتب التاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، ففضل وكتب لي ما أردت، فابتهته وطالعه كله مطالعة درس، ولا أزال إلى اليوم أجل تلك المجموعة المختارة سلوتي في خلوتي وجلوتي.

كتبت خمسًا وثلاثين مقالة ومحاضرة في وصف سياحتي، ولا سيما في وصف عاصمة فرنسا، وطبعت هذه المقالات في كتاب سميته «غرائب الغرب» وما كان في الحقيقة إلا غرائب باريز ليس إلا. وبعد أن أقيمت ثلاثة أشهر في «كارتيه لاتين» بباريز عدت إلى الأستانة عن طريق فيينا ميراً مما نسب إلي. وفي سنة (١٩١٢) أقام نفس الوالي الحميدي دعوى على المقتبس وقبض على مديره المسئول المرحوم أخي أحمد، وأخذ عالمًا من علماء المدينة اسمه الشيخ إبراهيم الأسكوبي، وأرسلهما إلى الأستانة فسجنا مدة، وذلك بتهمة أن المقتبس نشر قصيدة لهذا العالم تمس الآل السلطاني.

والحقيقة أنها تأوهات ونصائح، وكانت نشرت في جريدة من جرائد الشام قبل أن تنتشر في المقتبس بعشرين يومًا. أما أنا فتمكنت من الفرار كالمرة الأولى، وهبطت مصر عن طريق البر مع تجار الجمال، ودخلت الإسماعيلية بعد سير أربعة عشر يومًا، قطعت فيها الشام من الوسط إلى أقصى تخومها الجنوبية، ثم برئت مما نسب إلي كالمرة الأولى، وعدت إلى دمشق بعد ستة أشهر، وعاد المقتبس إلى الصدور؛ إلا أن الوالي كان يمكن من إجبار أحد إخوتي على بيع مطبعتنا، فأباعها بثمن بخس، فأضيفت الخسارة بها إلى ما خسرناه في إغلاق صحيفتنا السياسية مرتين، ولم يعوض علينا أحد شيئاً مما خسرناه. واكتفى المقتبس إلى ذلك حين باشتراكه وإعلاناته ومطبوعاته فقط. وقد استقبلت يوم عودتي إلى دمشق

كما يستقبل العظماء، فضحكت من تبدل الرأي العام، وبالغ بعض من استقبلوني بالحفاوة، وهم يزيدون على ألفين، كانوا يوم وقعت في الدعوة ينكرون عملي في انتقاد الحكومة، ومن قبل كانوا يصفقون ويستحسنون، وينحنون ويدعون، فلم أدر وجهًا برضاهم ولا لغضبهم، فكتبت إلى صديقي المرحوم العلامة رفيق بك العظم أقول له: إن القوم لا قوني في دمشق في هذه المرة كما يلاقون الملوك، فلم أفرح لهذا الإقبال، ولا ساءني ذلك الإدبار، وعجبت لجنون من ينخدع بالجماعات الذين لا يثبتون بحال على أفكارهم.

وفي سنة (١٩١٣) زرت إيطاليا وسويسرا وفرنسا والمجر والأستانة، وكتبت ٣٣ مقالة في وصف مدينة تلك الممالك. وكان الداعي إلى هذه الرحلة الثانية البحث عن المخطوطات التاريخية التي نقل عنها بالتصوير الشمسي صورًا، الأمير ليونني كياتاني من علماء إيطاليا وعظمائها. وقبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر وقف والي دمشق المقتبس، بدعوى أنه نشر عبارة في كشف الحجاب، وهي منقولة عن الصحف التركية، والحقيقة أن المقتبس كان توفر على كشف حجاب الاتحاديين، وأصلهم حربًا عوانًا هو وأنصاره من رجال البلاد وحملة الأقلام فيها، فأخذوا يخلقون له هذه التهم أو يكف عنهم. ولطالما تقاضوه ذلك، وله أن يتحكم في مطالبه الخاصة ما شاء فأبى، وربما كان رده لهم غير جميل لا يخلو من بعض خشونة، ثم ورد الأمر من نظارة الداخلية بعود المقتبس إلى الصدور، فأبیت إصداره، لما رأيت من الحيف والغرض وتربص الاتحاديين الدوائر به وبصاحبه، وكانوا الحاكمين المتحكمين في السلطنة العثمانية بلا منازع. وألح أرباب الشأن بإعادة المقتبس إلى الصدور، فكان جوابي أنني زهدت في هذه الصناعة صناعة الصحافة، ما دامت أحكامهم غاشمة ظالمة؛ إلا أن الحكومة بقيت تحاذرنى مدة أشهر، وأقامت شرطًا

أمام داري يكتب كل يوم أسماء من يدخل علي من أرباب الطبقات المختلفة، حتى إذا خرجت إلى منتزه أو زيارة أحد يتبعني الجواسيس حيث سرت، أما كتبي وجرائدي وبرقياتني فإنها كانت تراقب أشد مراقبة، بل أضحكها وأبكاها.

وبينا كان حالي كذلك أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام، وجاء الشام وال عاقل عادل اسمه خلوصي بك فنشأت بيني وبينه صداقة، ولا سيما عقب أن ظهر من تفتيش أوراق قنصل فرنسا أنني كنت دائماً إلى جانب خدمة العرب، ولم أمل إلى الخروج على الترك، ولا أسففت إلى خدمة غيرهم، مع أنني أردت على ذلك مرات، وأغلوا لي الثمن والجعالة، فاحتقرت كل نفيس في سبيل خدمة المصلحة العامة، وهذا سر نجاتي من مخالف قتلة الاتحاديين الذي لم يراعوا عظيمًا ولا غيره في الحرب، وصلبوا من صلبوا على أعواد المشانق بلا رحمة في مدن دمشق وبيروت وحلب.

أرادني خلوصي بك ست مرات على إصدار المقتبس وأنا أحاوله وأطاوله، ولكن قنصل ألمانيا كان يلح على الحكومة المحلية بإقناعي لإصداره، لما أيقن من تأثيره في أفكار الشاميين بل في بلاد العرب، فصحت بعد حين عزمي على إصداره، خصوصًا بعد أن أوحى إليّ خلص أصدقائي، بأن القوم يتربصون بي الشر إذا لم أجبهم إلى إصدار المقتبس، ولم أخدم الحكومة في تلك الحالة الحرجة، وأني إذا ظللت على إبائي يخشى أن يحاسبوني عما اجترحته في الماضي حسابًا غير يسير، وتكون حياتي في تهلكة، فاعتذرت بأن على المقتبس مبلغًا من الديون بسبب توقفه ثمانية أشهر وبيع مطبعته فقالوا إنهم يسددونها عني ففعلوا. وفي خلال ذلك جاء الشام أحد أساطين الاتحاديين «أحمد جمال باشا» قائدًا للجيش الرابع، وحثي على التعجيل بإصدار المقتبس، وكان

كلامه رجاءً في الصورة الظاهرة، وتهديدًا في الحقيقة، فبادرت إلى امتثال الأمر فأصدرته، وبقيت سنة لا أكتب فيه إلا نادرًا، ويتولى أخي سياسته، حتى تنبه جمال باشا للأمر وأرادني على كتابة مقالات افتتاحية باسمي ففعلت، وكثيرًا ما كانت أفكارني ترشح اضطرابًا من أفكار القائد العام مباشرة أو بالواسطة، فكانت إرادتي مسلوبة لتهديدي كل ساعة بنشر الحسابات القديمة مع الاتحاديين، وفي أواخر السنة الأولى للحرب أرسلني جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام إلى الأستانة فجناق قلعة، وأوعز إليّ بإنشاء رحلة هذه البعثة، ووضع كتاب في رحلة أنور باشا، وكيل القائد العام وناظر الحربية، إلى الشام والحجاز. ففعلت مضطرًا. وظهر هذان الكتابان الأول باسمي واسم ثلاثة من أرباب الصحف في الشام، والثاني باسمي فقط، وهما من كتب الدعاية السمجة في الحرب الممقوتة. وفي هذه السنة أيضًا أنشأت الدولة بإيعاز ألمانيا وترتيبها في مدينة دمشق جريدة يومية عربية أسمتها (الشرق) عهدت إليّ برئاسة تحريرها فوليته مدة، واضطرتني أحمد جمال باشا إلى رفع اسمي من جريدة المقتبس لتروج جريدة الشرق التي ظهرت إلى أواخر الحرب، وكانت جريدة ألمانية تركية بحثة يقصد بها الدعاية والتأثير في العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة.

ولما بدأت جيوش الحلفاء تتقدم في جنوبي الشام غادر أحمد جمال باشا البلاد،

فأرادني خلفه جمال باشا المرسيني أن أظل على ما كنت في جريدة الشرق فقلت له: «لم يستعبدني أحد في حياتي غير سلفك العالي، ولا أريد أن أستعبد مرة أخرى». وقصدت إلى الأستانة للتجارة فمنعي الاتحاديون هناك بإيعاز من أحمد جمال باشا، ومنعوني من معاونة أعمال لا أعرفها في الحقيقة. وبينما كنت أفاوضهم بذلك سقطت دمشق بأيدي

الحلفاء، وانقطعت الطريق بين الشام والأستانة، فعدت إلى دمشق بعد ثلاثة أشهر من سقوطها، لأعواد إصدار المقتبس، لكن الحاكم العسكري العام وكان من أصدقائي، ألح عليّ أن أتولى رئاسة ديوان المعارف فقبلت متكارهاً، وأخذت في درس حالة المدارس لإصلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية، وبدأت بإنشاء دار للآثار وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث، ثم حصل خلاف بيني وبين الحكومة فأردت التنحي عن رئاسة ديوان المعارف، فألحت عليّ الحكومة بالبقاء، فقلت: إن كان ولا بد فينقلب ديوان المعارف بأعضائه ورئيسه إلى مجمع علمي، وتكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشرة، فقبل هذا الاقتراح وشرعت في تأسيس المجمع العلمي العربي في ٨ حزيران سنة (١٩١٩).

وفي آخر تشرين الثاني سنة (١٩١٩) صدر الأمر بدعوى الضيق المالي بصرف رئيس المجمع العلمي وأعضائه، إلا عضوين فقط للإشراف على داري الكتب والآثار، وكان ذلك تشقيماً من بعض الأحزاب التي لم أشأ أن أسايرها على العمياء. ودمت منعزلاً في داري إلى أن عهدت إليّ وزارة المعارف في ٧ أيلول سنة (١٩٢٠) أول دخول السلطة الإفريقية إلى المدن الأربع؛ وهي الوزارة التي غيروا اسمها بعد مع سائر الوزارات باسم «مديرية عامة». وفي خلال ذلك أخذت عشرة من الطلاب للإخصاء في العلوم العالية في جامعات فرنسا، وزرتها للمرة الثالثة، كما زرت بلجيكا وهولاندة وإنكلترا وإسبانيا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا، وكتبت الرحلة الثالثة في إحدى وخمسين مقالة، وأعدت طبع «غرائب الغرب» وأدخلت فيه الرحلات الثلاث، فجاء في مجلدين. وكان أحد أعوان الجنرال غورو أول مفوض سام للجمهورية الإفريقية في سورية ولبنان نشر على لساني وبدون اطلاعي في إحدى المجلات الباريزية عبارة يقصد منها مدح الانتداب الفرنسي إلى التي ليس بعدها وتقريب

غورو وأعوانه، فكذبت ما عُزي إليّ في الصحف. وكان أحد موظفي البعثة الإفرنسية في دمشق دسّ أيضاً على لساني في خطبة أردت على إلقائها باللغة الإفرنسية في معرض بيروت التجاري على جماعة من الفرنسيين جملاً بخصوص العهد الفيصلي لم تخطر لي في بال، فامتعضت مما وقع في المرة الأولى والمرة الثالثة، ولما لم يرق عملي من التكذيب في نظري وكيل المفوض استقلت من المعارف، وبقيت في رئاسة المجمع، وكنت أديره أثناء وزارة المعارف وبعدها. وكان في ذلك الخير لأنني حصرت وكدي في خدمة المجمع وتأسيسه على ما يجب وبقدر ما يساعد المحيط المالية. وعرضت عليّ وزارة المعارف في الحكومة المؤقتة خلال ثورة سنة (١٣٤٤هـ) فاعتذرت وآثرت الانقطاع إلى المجمع وإتمام كتابي «أخطط الشام».

وفي ١٥ شباط سنة (١٩٢٨م) أسندت إليّ وزارة المعارف في حكومة صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسيني وبقيت أدير شئون المجمع العلمي إلى الآن. وفي أواسط شهر تموز سنة (١٩٢٨) ندبني دولة سورية والمجمع العلمي لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بمدينة إكسفورد فرحلت إلى بلاد الإنكليز وزرت بلجيكا وفرنسا. وقد اغتنمت فرصة وجودي في وزارة المعارف فأنشأت مدرسة العلوم الأدبية العليا جعلتها من فروع الجامعة السورية، كما هيأت جميع أسباب افتتاح كلية الإلهيات تضاف أيضاً إلى الجامعة وبذلك تمت لها أربع شعب؛ شعبة الطب، وشعبة الحقوق، وشعبة الآداب، وشعبة الإلهيات. وإذا انفسح الزمن للعمل ففي النية إضافة الفرع الأخير من فروع الجامعة وهو الفنون والعلوم.

كان المقتبس عقب الهدنة قد عاد إلى الصدور وظلّ يطرد نشره، حتى ألقت العصابات لغزو الساحل الشامي وأصبح القول الفصل لأناس من

صعاليك العامة وأغرار الشباب، ممن أخذوا يهدوننا سراً وجهراً إن لم نمالئهم على رغائبهم، في هيج الأفكار ودعوتها إلى الثورة، فأثرت توقيف المقتبس على إصداره آلة للفتنة بين الناس، وإهراق دماء الأبرياء ليربح المستعدون. على حين كنت على مثل اليقين أن الانتداب الفرنسي واقع لا محالة. وقد شق عليّ بعد أن بلوت من السياسة حلوها ومرها، وكرعت خلها وخمرها، أن آتي ما يكون وباله عليّ قبل غيري من رجال الصحافة، في أمر لا فائدة منه إلا لمن يستثمرون الثورات لمصحتهم الخاصة، وبقيت جريدتنا معطلة سنة كاملة، حتى دخل الجيش الفرنسي فعادت إلى الظهور. وظهرت جريدة المقتبس بتحرير المرحوم شقيقي أحمد كرد علي تصدر حرة في الجملة، وطنية الصفة والمنزع، فلما هلك أصبح تحريرها ألعوبة في أيدي أناس أرادوا تسخيرها في خدمة أحزابهم، فاضطرت إلى إغلاقها في صيف سنة (١٩٢٨) بعد أن خدمت البلاد عشرين سنة.

كان مذهب المقتبس السياسي معاونة الحكومة بالمعقول، وانتقادها عند الاقتضاء، وتحييدها إذا أتت ما تحبذ عليه، ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار، وبث الملكات الصحيحة وتقوية روح القومية العربية، وسياسته وطنية ليس فيها شيء من روح الكراهة للأجانب، ويرمي إلى فتح صدر الأمة لمعظم ما في المدنية الغربية من أسباب الرقي، ولا يتحزب المقتبس لحزب إلا إذا تجلى له غناؤه وبلاؤه في خدمة الأمة. فقد دخلت في جمعية الاتحاد والترقي قبيل الانقلاب العثماني بنحو اثني عشرة سنة، وخدمت ما استطعت وساعدت البيئة، ولم أجدد في الانقلاب للاتحاديين عهداً مع كثرة إلحاحهم عليّ؛ إذ رأيت ذلك حطة وتناقضاً في الخطة؛ لأن مرامي الاتحاديين تجلت بأنها تقصد إلى تريك العناصر، ومن أول مقاصدنا الدعوة إلى القومية العربية، وإنهاض العرب من كبوتهم.

ولما عبث الاتحاديون بالمقصد الذي رسموه لأنفسهم يوم نشأتهم الجديدة، تألفنا في الشام والأستانة كتلة من العرب والترك، وألفنا حزب الحرية والائتلاف اشتغلنا به مدة، ثم رأينا من المصلحة حله فحللناه. واقترح عليّ زمن الحكومة العربية غير مرة الدخول في الأحزاب فأبيت؛ ولكن لما تفاقم الشر، وأصبحت دمشق عاصمة في الصورة، والمديرون لها أغمارًا غرباء في الأكثر، صحت عزيمتنا مع جماعة من أهل الطبقة العالية مسلمين ومسيحيين وألفنا «الحزب الوطني» معدلاً لأمزجة الأحزاب الأخرى، فكان حاجزًا دون انبعاث ما يكدر من العوام.

وفي شباط (١٩٢٤) عُهد إليّ تدريس الآداب العربية في معهد الحقوق بدمشق، فرأيت تفاوتًا في عربية الطلبة، وكان منهم المقتدر الذي يصلح للكتابة والخطابة، ومنهم الضعاف في مبادئ النحو والصرف؛ لأن مدرستي الحقوق والطب كانتا تحاولان تكثير سواد الطلبة وتقبل منهم حتى المقصرين في الفروع المهمة، ولا سيما اللغة العربية التي يعدونها ثانوية! فاضطرت إلى إلقاء بعض دروس نحوية مختصرة على التلاميذ ريثما يستعدون لتلقي الآداب، فحاولت تعليمهم الإنشاء والخطابة بالعمل أكثر من النظر، ولم ترق بعض الطلبة العلامات التي نالوها في الفحص العام، وكان بعض أساتذهم يشوقونهم من طرف خفيّ على رفع أصواتهم بالشكوى من المدرس ليضموا درسه إلى دروسهم، ورأى رئيس الجامعة الطبيب الكحال السيد رضا سعيد الأيتوني استثمار هذه الحركة لمصلحته، ومصلحته أبدًا في إقصاء الأكفيا أرباب الإيرادات المستقلة من تداريس الجامعة، فقام مدفوعًا أيضًا بيد رئيس الحكومة إذ ذاك السيد صبحي بركات. وكان هذا مغيضًا محنقًا من صاحب الترجمة؛ لأن جريدة المقتبس لم تمالئه على خطبته، وصعب عليّ أن أترضاه، ولو بأن أذكر له على

الأقل أن لا علاقة لي بالمقتبس منذ مدة طويلة، وأنني لا أديره ولا أحرره ولا ينطق بلساني.

وكانت المؤامرة فاستكتب رئيس الجامعة عض الصحف للنيل مني، وأعطاهما فيما قيل دراهم لتكتب له المطاعن عليّ بما يفيد في تنحيّتي. ومن الرسائل ما كتبه له بعض مستخدميه ممن كان يغضبي عن سرقاتهم في مدرسة الطب مقابل هذا التطوع في خدمة أغراضه، ومنهم طلبة مقصرون في دروسهم كآفهم علي ما نشره له من الطعن بي بأن منحهم شهادة الطب، ومعدرته أنه في حاجة إلى من يحسن من جماعته كتابة سطرين بالعربية؛ لأنه هو ورئيس الحكومة ابن بركات لا يحسنان كتابة سطر واحد، وإذا قرأ أو قرئ عليهما كلام عربي لا يفهمانه بحال. وهكذا جمع رئيس الجامعة بعض الطلبة المقصرين في دروسهم في دار أحد من يدهنون له من أطباء مدرسته، ولقنوهم كيف يجراؤون علي الشكوى من الدرس ويكتبون محضراً بهذا الطلب، ومن لم يوقعه من الطلبة يهدد بما يخاف منه علي مستقبله. وأخيراً تقرر إرسال بضعة من طلبة مدرسة الطب إلى درس الخطابة في دار الحقوق لينادوا بإسقاط خمسة من الأساتذة من جملتهم مدرس الآداب العربية، وخطب بحضوري أحد الطلبة، وهو ابن أحد أخصاء رئيس الحكومة خطبة لُقنها، وكوفئ عليها بعدّ هو ووالده، فخرجت من المدرسة علي أن لا أعود إليها، وتم لبعض الأساتيد ما أرادوه، فاستأثروا بأكثر الدروس الشاغرة، ولم يعد من المخطوب فيهم إلا واحد وهو مدير المعهد السيد عبد القادر العظم الذي استرضى الطلبة وصانع رئيس الجامعة مع أنه أضعف الأساتذة المشتكى منهم ولا صلة له بالعلم.

أهم المطبوع منة كتبي مجلة المقتبس «ثمانية مجلدات وجزآن» صدر منها ثلاث سنين في مصر وخمس في الشام وهي تبحث في الاجتماع

والأدب والتربية والتعليم والتاريخ، ومنها «رسائل البلغاء» و«غرائب الغرب» و«غابر الأندلس وحاضرها» و«تاريخ الحضارة» و«القديم والحديث» و«رواية المجرم البريء» و«قصة الفضيلة والرذيلة». وأول ما نشرت رواية «يتيمة الزمان» سنة (١٣١٢هـ). وآخره «خطط الشام» وهو كتاب في مدينة الشام وتاريخه صرفت في تأليفه ثلاثين عامًا، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتي مجلد بالغات الثلاثة العربية والتركية والإفرنسية، وأنفقت في سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه، ويدخل في ستة مجلدات وربما كان معجمه في أربعة. وعندي من التأليف التي لم تطبع «حرية الوجدان» و«الحرية المدنية» و«الحرية السياسية» معربة من جول سيمون الفيلسوف الإفرنسي. ومنها «كنوز الأجداد» و«مكتشفات الأحفاد» و«أمراء الإنشاء» و«أخلاق المعاصرين» إلى غير ذلك من المقالات والأبحاث المنشورة في المجلات والصحف وآخرها مقالاتي وانتقاداتي في «مجلة المجمع العلمي العربي» خلال تسع سنين.

خلقت عصبي المزاج دموية، مفرمًا بالموسيقى العربية، محبًا للطرب والأنس والدعابة، عاشقًا للطبيعة والساحة. وقد كان للمزرعة الصغيرة التي أورثنا إياها المرحوم والدنا في قرية «جسرين» ومن قرى الغوطة أثر ظاهر في تربية ملكتي، وبها استغنيت أنا وإخوتي لأول أمرنا عن طرق الأبواب للتحويل أو التسفل للمعاش.

ولم أخل منذ اشتغلت بسياسة البلاد وحتى بعد أن تجردت للعلم المحض، من جرائد كان من جملة أغراضها ثلبي، وكثير من كتاب الذين عُرفوا بالسفاهة كانوا يرزقون الجنيهات الكثيرة على حساب النيل مني، والتناول علي، وما زالت حتى الساعة لا أخلو من أناس يتناولون علي حب الشهرة، ينالونها من طريق الطعن بمن اشتهروا، ولم يحدث لي أن أجبت أحد هؤلاء الطاعنين في وقت من الأوقات؛ اللهم إلا إذا كان

هنالك تحريف لحقيقة وطنية أو قضية علمية، فأذكر الواقع بدون اسم المتحامل المخالف، وقد وقع مرة لمجلة ألبسها أصحابها ثوب الدين، أن سلخت نحو ثلاث سنين تكتب في المقالات والقطع الصغيرة فلم أجبها، ولم أقرأ أكثر ما كتبت، حتى إذا نضبت مادتها من المال والقول، أجبتها بمقالة نشرت في كتاب «القديم والحديث» باسم «الإصلاح» وهي من المقالات التي لم تخل من حدة.

أعشق النظام والتدقيق، وأحب الحرية والصراحة، وقد أولعت بالتجدد، ومن عادتي أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعبه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة، وأدور من الإصلاح التدريجي العلمي في دائرة لا تتعدى الثورة في الأفكار، أجاهر في الحق، وأطعن في المناقذين وأتجهم لهم، وأجبه المرتشين والمخربين، لذلك يكثر أعدائي من أهل هذه الطبقة. ولطالما كادوا لي وآذوني في مادياتي فلذ لي عملي ولم تسؤني نتائجه، أخلص للصاحب وأخدمه خدمة خالصة، وأغار من مصلحته، وربما أرفعه فوق قدره، حتى إذا بدرت منه بادرة سوء نحوي أو نحو المجتمع، ألوي وجهي عنه آخر الدهر. ولطالما آخذني بعض أصحابي على إسداء المعروف إلى من هم أول من ينكرونه، وإسراعي إلى تصديق من حولي، في زمن يكذب فيه معظم أهله، دعاني إلى الإحسان إلى أناس ليسوا أحرى به، وإلى الأخذ بأيدي فئة كان الأولى لهم أن يظلموا مغمورين، ومعظمهم كانوا لمقاصد لهم يتخيلونها أول من حملوا عليّ وعادوني، فكان الجواب أنني أحمل الناس على محمل الخير، فإذا ظهرت تربيتهم الحقيقية، وتبين أنني كنت مغرورًا بهم كان جزاؤهم الإعراض، وهل يجوز العقل أن تعض الكلب الذي يعضك، والحيوان المفترس الذي يحاول إهلاكك ولو أطعمته وسقيته.

أكره الفوضى وأتألم للظلم، وأحارب التعصب، وأمقت الرياء، وإذا حاربت لأجل المظلومين، وهاجمت طغمة المتعصبين، فإنما أحارب وأهجم بذوق وفهم على الأغلب، وأميل إلى الشدة، وقد تكون إلى الإفراط أحياناً، لتفعل البلاغة فعلها في عقول من يراد إرشادهم أو إسقاطهم، وتنقبض نفسي منذ الصغر من غشيان المجالس والمجتمعات الغاصة بأنواع الناس، وأحرص على الوقت فلا أكاد أنفقه إلا لمنفعة عامة أو خاصة اهـ.